

سورة الصغيرة

٥٣

الموسوعة الصغيرة

سلسلة ثقافية نصف شهرية تتناول
مختلف العلوم والفنون والآداب

رئيس التحرير: موسى كريدي

الكتاب القادم:

الاسطورة

د. نبيلة ابراهيم

دار الحرية للطباعة - بغداد

السعر ٥٠ فلسا

مقدمة
في تاريخ العرب

د. ابراهيم السامرائي



بالدراسات
تفيسة
لنا من



د . ابراهيم السامرائي

منشورات وزارة الثقافة والاعلام

الجمهورية العراقية

تشرين ١٩٧٩/٢



د . ابراهيم السامرائي

- ولد في العارة سنة 1923 واتى فيها دراسته الابتدائية والاعدادية .
- اُتسب الى دار المعلمين العالية وتخرج فيها سنة 1945
- عمل لفترة بالتعليم الثانوي
- التحق بالبحث العلمي في فرنسا (السوريين) سنة 1948
- عاد من فرنسا سنة 1956
- عين مدرسا لثمة اللغة في كلية الادب ومازال يعمل فيها
- ألف حوالي خمسين كتابا في اللغة والحور وحقق عددا من كتب التراث العربي .
- من مؤلفاته
- الفل زمانه وأهليه
- لغة الشعر بين جيلين
- العربية بين أسهامها
- التوزيع اللغوي الجغرافي
- تنبؤ العربية في العصر الحديث
- نزعة الأبناء للاجباري تحقيق
- شعر الأحرص (جمع ومقتطفة) .



تمهيد

لعل العربية من أحفل اللغات بالدراسات التاريخية . لقد عنى المتقدمون عناية مستفيضة بنحوها وصرفها وموادها الأخرى حتى كان لنا من جملة ذلك خزانة عامرة تتصل بالعربية بوجه عام .

ثم جاء العصر الحديث فمقب أهل عصرنا على ما تركه لنا المتقدمون فكانت دراسات حديثة أفادت مما جد من وسائل الدرس وطرائق تناول الموضوع . غير أننا ما زلنا نفتقر أشد الافتقار إلى فهم علمي صحيح لتاريخ اللغة . إن شيئا كثيرا مما اشتملت عليه الخزانة اللغوية القديمة لم يعرض لتحقيق المشكلة اللغوية ، بل لعل الأقدمين لم يهتموا إلى حقائق مع اخلاصهم في البحث وانقطاعهم إلى العلم بسبب موقف معين .

وسيكون من غرضي في هذه المشاركة الموجزة الوقوف على الحقائق التي أبتعد عنها المتقدمون بسبب منهجهم الذي اتبعوه . وبسبب تحرجهم من القول في لغة القرآن قولاً لا يقدر في بلاغته ولا في أعجازه وإنما يرضى العلم فيكون كلام الله بذلك دليلاً

تاريخيا على مقدرة هذه اللغة على ادراك دقائق المعاني وان كانت مفرغة بأسلوب اخفق اهل اللسان والبلاغة ان يحاكيه . ولن نستطيع ان نفهم العربية وكيانها بل اننا لا ندرك حجمها الحضاري ان لم نحسب للحدث القرآني الحساب الدقيق ، ذلك انه قد برهن ان العربية فيه قد تجاوزت حدود الانسانية المحضة . الا ترى انه ينبغي لنا ان نبدأ في معجزة تاريخية Levicographie معتمدين على لغة القرآن ذلك انها تزودنا بطائفة من المدلولات مما يكشف سعة العربية وقدرتها على تطوير الالفاظ والدلالات .

مقدمة في تاريخ العربية

كثر الكلام على سلامة اللغة ولا بد ان يحفز ذلك الى القيام بدراسات جادة للوصول الى شيء من تاريخ العربية . ان الوصول الى سلامة اللغة يقتضي فهم المشكلة اللغوية التي لم يحسن تصورها ووضعها في المكان الذي ينبغي ان توضع فيه .

قلت : لا بد من معرفة شيء من تاريخ العربية ذلك اننا نجهل الكثير من اولية هذه اللغة العالية . فكيف العمل ؟

هل لنا ان نعود الى الشعر الجاهلي ؟ لا اظن ان ذلك مجد في استكناه شيء مما نصبوا اليه من تاريخ لغتنا العريقة .

ان الدارس لمواد الشعر الجاهلي يخرج منها بنتيجة مضللة هي ان هذه النصوص لا تخلو من عناية وصنعة تجعلها لغة خاصة . اريد من ذلك ان الشاعر الجاهلي يلتزم في شعره بلغة خاصة تختلف عن لغة قبيلته التي ينتمي اليها ، هي لغة الشعر بموادها وتركيبها . ان هذه اللغة مادة وتركيبا

تلمسها في كل قصيدة جاهلية ، وكانها صارت شيئا
لا بد منه في كل نظم ، جاهليا كان ام اسلاميا .

اقول : اذا كان الذي ورثناه من مادة الشعر
الجاهلي يقدم لنا نموذجا لغويا موحدًا ، فهذا يعني
ان العربية قبل الاسلام بما يقرب من قرن ونصف
قد عرفت « التوحيد » فكانت لغة المجتمع العربي
القديم في الموطن العربية في شبه الجزيرة العربية
مشملة على اجزائها كلها .

ان العلم الصحيح لظروف بلاد العرب وتوزيع
المجاميع البشرية فيها يفرض علينا ان نقول بوجود
لغات عربية عدة . ولا اريد ان اسميها لهجات وذلك
لانها وسائل جوهرية رئيسة يعرب بها العربون .

اننا نعلم من لغات شبه الجزيرة العربية الشيء
الكثير . ولقد سجل اللغويون الاقدمون مواد مهمة
اشتملت عليها مصنفات تعد وثائق تاريخية . غير
اننا لا نجد من هذه المواد شيئا كثيرا في مادة الشعر
الجاهلي . اننا نقرا نصوص الشعر الجاهلي وهي
لشعراء كثيرين ينتمون الى قبائل شتى ، ولكننا لا
نلمس شيئا يتصل بالفروق بين لغاتهم .

قد يضل الباحث فيذهب الى ان العربية
الجاهلية كانت لغة موحدة يعرب بها كل العرب على
اختلاف انتماءاتهم القبائلية ، غير ان الحقائق
التاريخية تثبت ان شيئا من هذا لم يتم ولم يتهدأ
للعربية بوجه عام كما سنرى .

ولن يغيب عن الباحث الجاد ان عربية التنزيل
هي العربية السائدة في عصر النبوة . ان عربية التنزيل
العزير الذي نقرؤه الان شيء اتفق عليه وابتعدت
عنه عناصر كثيرة مما يتصل بلغات العرب . لقد
اتفقوا على ما اسموه بالقراءات القوية العالية . وهذا
يعني ان غيرها دعيت بالضعيفة او الشاذة ، وقد
حفلت هذه القراءات الشواذ بمواد مهمة تتصل
بلغات القبائل والاقاليم والمجتمعات الخاصة وسنأتي
على شيء من ذلك .

ولنعد الى لغة التنزيل العزير في نصوصها
التي اجمع عليها ائمة اهل القراءات وارتضاها اهل
الراي ودرج عليها المسلمون في اقطارهم المختلفة .
ولا اريد ان ابحت في اعجاز هذه الايات المحكمات
ولا في بلاغة تلك اللغة العالية التي اخذ بها العرب لما
اشتملت عليه من بيان رائع واحكام دقيق واصابة
للدقائق من المعاني والانكار ، ولكنني سأعرض
لنماذج لغوية خاصة ، فاعرض لها عرضا تاريخيا .

لقد اختلفت هذه اللغة الشريفة بنماذج من الاستعمال وقف منها اهل اللغة والنحو وقفة خاصة فحاولوا تفسيرها وتاويلها على نحو يعتمد عن الحقيقة اللغوية وتطورها التاريخي .

ولنعرض لطائفة من تلك المواد اللغوية التي لم يستطع اهل اللغة المتقدمون فهمها على الوجه الصحيح :

العربية التاريخية

لقد عرفت اللغات السامية هذه الطائفة من الحروف واستعملتها لربط اجزاء الجملة القديمة بعضها ببعض كايصال الفعل الى المفعول وهو ما اصطلح عليه في العربية بـ « التمدي » ، او كربط اسم باسم اخر . غير ان العربية تميزت عن سائر اللغات السامية الاخرى بوجود طائفة من هذه المواد مما لا نجد نظائره في تلك اللغات .

ثم ان هذه الحروف قد استعملت في فصيح العربية كما في لغة التنزيل وفي الشعر القديم استعمالا عدة فطن لها المتقدمون من علماء اللغة .

انه مما لا شك فيه ان الاوائل من علماء اللغة قد استقروا متن اللغة في المانور من العربية شعرها ونثرها . ثم بحثوا في كلام الله ووقفوا عليه وقفات طويلة كما اشرنا . وكان من ذلك ان انتهوا الى مسائل ربما كانت سببا في حيرتهم وذهابهم في تاويلها مذاهب شتى .

تفسر هذه الظاهرة فقالوا بالتوسع في الاستعمال ،
وربما لجأوا الى التفسير البلاغي بشيء قليل او كثير
من الصنعة والتكليف .

اما الكوفيون فانهم لم يروا ما يمنع من القول
بانابة بعض حروف الجر عن بعض بطريق الوضع
اي ان الحرف عندهم يشتمل عند وضعه على اكثر
من معنى .

وطريقة الكوفيين في فهم هذه الظاهرة وتناولها
جرات المتأخرين من النحويين على القول ان الحرف
« في » مثلا ضمن معنى « على » فنشأ عندهم
« التضمين » اللغوي .

اقول : كان الكوفيون قالوا بـ « التضمين »
بقولهم : بـ « انابة » غير انهم اضافوا الى رأيهم ان
التضمين هذا او الانابة كانت « بطريق الوضع » .
ومعنى هذا ان الحرف قد وضع لمعان عدة ، وهذا
ما خالفوا به البصريين .

ولكنني ارى ان المتقدمين بصريين وكوفيين لم
ينظروا الى المسألة نظرة تاريخية فيقطعوا بحقيقة
علمية يفرضها التاريخ اللغوي .

ومن هذه المسائل استعمال حروف الجر .
انهم لمحاوا ان لاي من هذه المواد استعمال كثر وورود
في القرآن الكريم وفي غير القرآن الكريم من كلامهم .

غير انهم لمحاوا ايضا انها قد تستعمل فتناهى عن
هذا الكثير الذي درجوا عليه في نظمهم ونثرهم وربما
في الضرب السائر الذي يباشرونه في حياتهم اليومية
من ضروب التعبير . ومن غير شك ان شيئا من ذلك
عرض في لغة التنزيل .

كيف راوا المشكلة ؟ وكيف عللوا واولوا ؟

انها مشكلة كسائر المشكلات التي ذهبوا فيها
فريقتين : بصريين وكوفيين وطرفا اخر له رأي خاص .

لقد منع البصريون انابة بعض الحروف الجارة
عن بعض قياسا وهم يؤيدون رأيهم هذا بعدم نيابة
حروف الجزم والنصب بعضها عن بعض ، فقد ذهب
الزجاج النحوي الى انه لا يجوز ان يقال : ان بعض
الحروف من حروف المعاني بمعنى الاخر ، ولكن
الحرفين قد يتقاربان في الفائدة فيظن الضعيف العلم
باللغة ان معناهما واحد وليس كذلك .

وهم يحملون ما قد يوهم من الحروف الى انه
قد ضمن معنى حرف اخر على تضمين الفعل معنى
فعل اخر يتعدى بذلك الحرف . وقد ذهبوا في

قلت : لقد وردت كلمة «في» وهي من هذه الحروف التي يتوصل بها الى الاسم الذي يلي السابق له من فعل او اسم وهي تفيد كثيرا «الظرفية» فان وردت وهي تؤدي معنى « على » الظرفية على طريقة الاستعلاء فذاك امر قليل غير كثير .

لقد وجد علماء اللغة شيئا من ذلك في لفظة التنزيل فحاروا الحيرة وذهبوا في تأويل ذلك مذاهب عدة انتبت الى القول بالتضمن .

قال تعالى : « ولاصليتم في جذوع النخل » سورة طه ٧١ ، اي على جذوع النخل ومعنى هذا ان «في» جاء « في مكان على » كما ذهب ابن قتيبة الذي لم يشر الى التضمن وانما ذكر ذلك في « باب دخول بعض حروف الصفات مكان بعض » في كتابه تأويل مشكل القرآن ص ٤٢٦ .

ولم يكتف اللغويون بهذا التأويل وكانهم شعروا ان هذا الاستعمال ينأى عن الكثير المتداول المألوف ولما كان في آي القرآن فلا يمكن ان يحمل على الشذوذ ، فكان ذلك مدعاة حيرتهم وذهابهم في التأويل الى ما اشرنا اليه . ثم راحوا يستقرون شعر العرب الجاهليين ليقفوا على نظائر هذا الاستعمال ليكون ذلك دليلا لهم ان ما ورد في لغة التنزيل لم

اقول : ان استعمال اي حرف من حروف الاضافة (١) هذه قد عرف في العربية . وان الفعل العربي قد توصل الى الاسم الذي يليه بحرف معلوم دون غيره فاذا قيل : ذهب كان السامع متوقعا ان يأتي الحرف « الى » بعد هذا الفعل ، فان جاء حرف اخر غير « الى » فذاك يتصل باختلاف المعنى للفعل « ذهب » حينما وربما كان بسبب اخر سنعرض له الان .

ان اختلاف المعنى للفعل يؤدي الى ان يحتاج العرب الى ادوات اخرى يفرضها المعنى . وليست العربية بدعا بين لغات العالم قديمها وحديثها فانت تجد من هذا في كثير من اللغات .

ان الكلمة فعلا كانت او اسما تنصرف الى معان عدة، ومن ثم فلا بد لها من استعمالات مختلفة.

(١) ارى من الاصوب ان تستعمل مصطلح الكوفيين وهو حروف الاضافة بدلا من حروف الجر الذي درج عليه البصريون ذلك انه الصق بالمفهوم اللغوي لهذه الحروف فهي حروف وصل وربط . اما القول بـ « الجر » فانه يشير الى « الاعراب » فقد ذهب البصريون الى ان الكسرة في آخر الاسم كانت بسبب تقدم « عامل الجر » وهو الحرف .

يخرج عن سنن العربية . وكان من استقراءهم أنهم وجدوا قول الشاعر :

وهم صلبوا العبدى في جلدع نخلة
فلا عطفت شيبان الا باجدعما

وقال عنثرة :

بطل كان ثيابه في سرحة
يحذى نعال السبت ليس بتوام

اي على سرحة من طوله .

ومثل هذا قالوا في « الباء » تدخل في مكان
« عن » كما في قوله تعالى :

« فاسأل به خبيرا » سورة الفرقان ٥٩ ، اي
عنه .

وكانهم وجدوا في الشعر شيئا من هذا
الاستعمال وهو قال علقمة بن عبدة :

فلا تسالونى بالنساء فاننى
بصير بادواء النساء طبيب

اي عن النساء .

وقال ابن احمر :

تسائل بآبن احمر من رآه

اعارت عينه ام لم تُعارا

ومثل هذا ما ذهبوا اليه من مجيء « عن »
مكان « الباء » كما في قوله تعالى :

« وما ينطق عن الهوى » سورة النجم ٣ اي
بالهوى .

واستدلوا بقول العرب : رميت عن القوس ،
اي رميت بالقوس .

وقالوا دخلت اللام مكان « على » في قوله
تعالى :

« ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض »
سورة الحجرات ٢ . اي لا تجهروا عليه بالقول .
واستدلوا بقول العرب : سقط فلان لفيه ، اي
على فيه . وقال الشاعر :

تناولت بالرمح الطويل ثيابه

فخرت صريعا للبدن وللغم

مثل ذلك وقوع « الى » مكان « مع » كما في
قوله تعالى :

« ولا تاكلوا اموالهم الى اموالكم » سورة
النساء ، اي مع اموالكم .

ومثله قوله تعالى ايضا :

« من انصاري الى الله » سورة آل عمران ،
اي مع الله .

وتقول العرب اللّود الى اللّود اربل ، اي مع اللود .

وكانهم وجدوا ايضا شاهدا في قول ابن مفرغ :
شَدَخَتْ غُرَّةُ السَّوَابِقِ فِيهِمْ
في وجوه اللى اللمام الجماد

اراد : مع اللمام الجماد .

ومن هذا الباب وقوع اللام مكان « الى » كما في قوله تعالى :

« بان ربك اوحى لها » سورة الزلزلة ، اي اوحى اليها .
وقوله تعالى :

« الحمد لله الذي هدانا لهذا » سورة الاعراف
{ ٤٣ } اي الى هذا .

ومثل هذا ايضا وقوع « على » مكان « من » كما في قوله تعالى :

« ويل للمطففين الذين اذا اکتالوا على الناس يستوفون » سورة المطففين ١ ، ٢ ، اي مع الناس .

لقد جاء في شعر صخر الفي مثل هذا قوله :
متى ما تنكروها تعرفوها

على اقطارها علق نغيث

اي من اقطارها .

ومنه ايضا قوله تعالى :

« من الذين استحق عليهم الاوليان » سورة المائدة ١٠٧ ، اي منهم .

ومن هذا ايضا وقوع « من » مكان الباء كما في قوله تعالى :

« يحفظونه من امر الله » سورة الرعد ١١ ، اي بامر الله .

وقوله تعالى :

« يلقى الروح من امره » سورة غافر ١٥ ، اي بامر .

وقوله تعالى :

« تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر سلام » سورة القدر ٤ ، ٥ اي بكل امر .

ومنه ايضا وقوع الباء مكان « من » كما في قوله تعالى :

« عينا يشرب بها المقربون » سورة المطففين ٢٨
وقوله تعالى : « عينا يشرب بها عباد الله » سورة

الانسان ٦ . ويكون بمعنى يشرب بها عباد الله ويشرب منها .

قال الهذلي :

شربن بماء البحر ثم ترفعت
متى لجبر خضر لهم تليج

وقال عنتره :

شربت بماء الدخرصين فاصبحت
زوراء تنفر عن حياض الديلم
ومن ذلك ايضا وقوع «من» مكان «في» كما في
قوله تعالى :
« ارونني ماذا خلقوا من الارض » سورة فاطر
٤ ، اي في الارض .

ومنه ايضا وقوع «من» مكان «على» كما في
قوله تعالى :
« ونصرناه من القوم » سورة الانبياء ٧٧ ، اي
على القوم .
ومنه كذلك وقوع «عن» مكان «من» كما في
قوله تعالى :

« وهو الذي يقبل التوبة عن عباده » سورة
الشورى ٢٥ ، اي من عباده .
ومنه ايضا وقوع «على» مكان «عند» كما
في قوله تعالى :
« ولهم على ذنب » سورة الشعراء ١٤ ، اي
عندي .

ومنه وقوع الباء مكان اللام كما في قوله تعالى:

« ما خلقناهما الا بالحق » سورة الدخان ٣٩
اي للحق .

ان جملة هذه الآيات التي استعملت فيها
حروف الجر على النحو الذي لا نعرفه في استعمالها
الشائع فكان مدعاة الى ان تحمل تفسيرات وتاويلات
خلاصتها انها حلت محل حروف اخرى كوقوع «من»
موقع «على» ووقوع «عن» موقع «من» وغير
ذلك مما ذكرناه واشرنا اليه ، اقول : ان هذه
الظاهرة اللغوية تشير الى ان اللغة العربية في عصر
القرآن ما زالت تحتفظ بمظاهر لغوية تشير الى
المراحل التي انسلخت من عمر هذه اللغة . تلك
المراحل التي كان منها عدم استقرار استعمال هذه
الادوات . ثم انها اخذت طريقها نحو التوحيد
والانسجام والخلوص الى ما يشبه الاستعمالات
الثابتة التي بدأت تتضح في الاستعمال .
ومن غير شك ان الاستعمال الذي كتبت له السيرورة
والشروع يصبح علامة من العلامات البارزة المميزة ،
غير انه لا بد ان يتخلف شيء قليل يعرض للمعربين
وهو البقية الباقية من المراحل التاريخية السابقة .
ان طريقة اللغويين الاقدمين في تناول هذه البقايا انهم
حملوها على الشذوذ او على انها لغة من لغات القبائل
او لغة جهة من الجهات او اقليم من الاقاليم .

المحكم بحيث تهباً للرسول الكريم ان يحكم المسلمين
بيدي القرآن الذي اخرس فصحاء البلاغة وقرسان
الكلام .

ولنعد الى مادة « التضمين » لنقول : ان
اللغويين النحاة لم يقصروا التضمين على الادوات اي
الحروف بل تجاوزوا ذلك الى الافعال .

قال الزمخشري : « ومن شأنهم ان يضمنوا
الفعل معنى فعل آخر فيجروه مجراد ويستعملوه
استعماله مع ارادة معنى المتضمن . قال : والغرض
من التضمين اعطاء مجموع معنيين . وذلك اقوى
من اعطاء معنى ، الا ترى كيف رجع معنى « ولا تعد
عيناك عنهم » الى قولك : ولا تقتحمهم عيناك
مجاوزتين الى غيرهم ، وكذلك قوله تعالى : « ولا
تأكلوا اموالهم الى اموالكم » اي لا تضموها اليها
آكلين .

اقول : وليس اهون على الباحث في عصرنا من
تناول استعمال الفعلين « عدا » و « اكل » في الآيتين
الكريمتين بغير طريقة التضمين التي عرض لها
الزمخشري . الا ترى ان المجاز والتوسع ، وهما من
طرائق العربية في العلاقة بين اللفظ والمعنى ، مما
يمكن بهما ان تتناول طائفة كبيرة من الالفاظ . وان
علم الدلالة (Sémantique) يعرض لهذا
الموضوع في باب التطور اللغوي .

غير انهم حين وجدوا شيئاً من ذلك في لغة
التنزيل اخذهم شيء من الحرج فاحترزوا عما
توهوا انه نيل من كتاب الله الكريم فاهتدوا الى
هذا التفسير الذي اشرنا اليه على خلافهم من بصريين
وكوفيين .

اقول ان هذه الاستعمالات التي وردت مخالفة
للمشهور الكثير الذي حفلت به لغة القرآن ليس الا
بقية باقية لاستعمالات هذه الادوات قبل ان تأخذ
العربية طريقها الى ان تكون لغة قواعد ثابتة
واستعمالات شائعة عامة .

ان الذي درجت عليه العربية الفصيحة في
عصر القرآن ان تقرأ في قوله تعالى :

« واوحى ربك الى النحل » سورة النحل ٦٨
ومثل هذا كثير في استعمال « الى » بعد الفعل
« اوحى » فاذا قرانا قوله تعالى « بان ربك اوحى
لها » من سورة الزلزلة وراينا استعمال « اللام »
مكان « الى » ادركنا ان هذا ومثله شيء اخر يشير
الى ان العربية في آي القرآن الكريم ذات فائدة
تاريخية نعرف منها ان سيرتها ادركت غاية عظيمة .

وليس في استنباط هذه الفائدة التاريخية من
ضير يحمل على هذه اللغة العالية ولا ارى ان في هذا
البحث التاريخي نبداً من كلام تحقق فيه الاعجاز

ابن الخطاب قد سمع رجلا يقرأ « عتيّ حين » في قوله تعالى : « ليسجننه حتى حين » (سورة يوسف ٢٥) ، فقال : من أقرأك ؟ قال : ابن مسعود ، فكتب اليه : ان الله انزل هذا القرآن عربيا ، وانزله بلغة قريش ، فاقريء الناس بلغة قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل .

وما استطاعت لغة القرآن والحديث ان تأتي على الدارج من اللغات الخاصة ، تلك اللغات التي ابقت في العربية الفصيحة العامة آثارها التي اشرنا الى طرف منها . وها نحن نستوفي تلك الآثار التي حباها مخلفات لغوية لم يستطع المبريون ان يلفوها في عربيتهم طوال العصور الاسلامية .

ومن تلك الآثار شيء يتصل بأصوات العربية وطريقة ادائها . ان الكلمة العربية جرت على مبان خاصة Schèmes اجتمعت فيها الاصوات الصامتة Consonnes والاصوات الصائتة Voyelles اجتماعا اشتمل على التناسب والتوافق ، فليست واجدا صوتا من الاصوات الصامتة الا وجدته مسبوqa او متلوا بصوت من الاصوات الصائتة . ثم انك لا تجد صوتا صامتا متلوا بأخر صامت كما يحدث في طائفة من اللغات سامية وغير سامية . ثم انك لا تجد كلمة عربية

قلت ان استعمال ادوات الجر في الآيات الكريمة التي اشرنا اليها والتي فسرت على ان الادوات وقعت احداها موقع الاخرى ، من المخلفات اللغوية لمرحلة تاريخية اوشكت ان تزول وذلك لان استعمال هذه الادوات استقر على نحو معروف شاع في استعمال العربيين كما شاع في لغة التنزيل .

وليست هذه الاستعمالات القليلة التي حملت على انها بقية للعربية القديمة هي العلامات الوحيدة التي تخلفت في العربية فقد اهتمدنا الى شيء كثير من هذه الفرائد التاريخية التي لا سبيل الى ان نقول الا انها بقية لعربية قديمة قبل ان تتوحد في لغة القرآن الجيد .

ولن نستطيع ان نفهم جوهر العربية ولا كيانها وثقلها الحضاري اذ لم نحسب للحديث القرآني حسابا دقيقا وتوليه الجزء الاوفى من عملنا اللغوي . ان آي القرآن الكريم قد اثبت ان العربية قد تجاوزت حدود الانسانية المحضة .

ان البحث في تاريخ العربية يدلنا على الجهود التي بذلت كي تسود لغة التنزيل في وضوحها والتزامها بخصائصها ، لتكون لغة عامة يعرفها عامة العرب متخففة بماوسمتها به اللغات الخاصة التي درج عليها جمع منهم وقرؤوا بها ، فقد ورد ان عمر

بدئت بصوت صامت الا اتبع بصوت صائت . وهذا يعني في لغة النحاة ان العرب لا يبدؤون بالساكين وانما يبدؤون بالمتحرك . غير اننا واجدون في العربية الفصيحة جملة ابنية توميء الى انها بدأت بصوت صامت لم يتبعه متحرك اي انها بدئت بالسكون نحو : ابن واسم ، واستخرج ، والشمس ، وانهمز وفعل الامر من الثلاثي نحو اضرب .

ان هذه الالفاظ قد بدئت بصوت صامت Consonne وهي الباء والسين والشين واللام والنون والضاد . وهذه الاصوات ساكنة غير متحركة اي انها لم تتبع بحركة (١) . وهذا ما سمي في كتب النحو القدم بـ « البدء بالساكين » . ولما استوفت العربية حفظها من التضج والتوافق بين الاصوات الصامته والاصوات الصائتة (الحركات) ، انساق المعربون الى ان تأخذ هذه الالفاظ ونظائرها طريقة العربية من حيث البدء بالمتحرك لا الساكن فالحققت بهذه الاصوات الصامته نوعا من الهمزة بشيء من صوت مختلس او مخطوف يستعان به الى الوصول الى الصوت الصامت الذي بدأت به بنية الكلمة .

(١) الحركات في العربية وهي الفتحة والكسرة والضمة على اختلافها في الطول والقصر هي اصوات صائتة اي انها كالاصوات اللينة او المد في طبيعتها كالياء والواو والالف .

قال الخليل بعد تمثيله للخماسي من الافعال : « الالف التي في اسحنكك واقشعر واسحفر واسبكر ليست من اصل البناء ، وانما ادخلت هذه الالفات وامثالها من الكلام لتكون عمادا وسلما للسان الى الحرف الساكن » (٢) .

ورمال الخليل جماعة فقال : كيف تلفظون بالحرف الساكن ، نحو ياء غلامي وباء اضرب ودال قد ؟ فقالوا له : تقول : ياء وباء ودال ، فلم يرض اجابتهم لانهم لفظوا بالاسم ولم يلفظوا بالحرف ولم يحكوه كما هو في غلامي واضرب وقد . فقال لهم : اقول : اب واي واد ، فالحق الفاموصولة . قال : كذلك اراهم صنعوا بالساكين الا تراهم قالوا : ابن واسم حيث اسكنوا الباء والسين ، وانت لا تستطيع ان تتكلم بساكن في اول الاسم كما لا تصل الى اللفظ بهذه السواكن فالحققت الفا حتى وصلت الى اللفظ بها ، فكذلك هذه الالفات حتى تصل الى اللفظ بها كما الحققت الساكن الاول في الاسم .

ان اضافة الالف في اول هذه الالفاظ شيء يستعان به الى الوصول الى الساكن . ومن اجل ذلك تختلس حركة هذه الالف فكان الناطق بـ « اضرب » فمل الامر من « ضَرَب » ينطلق بالضاد فلا تحس اثرها واضحا كل الوضوح للالف الاولى .

(٢) الجزء المطبوع من العين ص ٢ .

ولعل المغاربة من العرب في عصرنا ينطقون الساكن
الاول ويلغون الغاءً تاماً ، هذه الالف العماد او
السلم ، ذلك انهم ينبرون الجزء الاخير او المقطع
الاخير في الكلمة .

ووجود هذه الظاهرة اللغوية قد يكون دليلاً
على ابتداء بالساكن في العربية التي سبقت هذه
المرحلة الفصيحة . ومما يقوي هذه المقولة جواز
النطق بالساكن في كثير من اللغات السامية ، وهذا
يعني ان تلك اللغات لم يتهيا لها من النضج في
اصواتها وادائها ما تهيا للعربية التي ظلت حية قائمة
في حين ان سائر اخواتها الساميات قد ضعف بل
اندثر وعفي عليه الزمان .

ومن هذه الظواهر الصوتية شيء يتصل
بمقطع طويل يعرض لبنية الكلمة فيؤدي الى طول
يخرجها عن نمط الكلمات المتوافقة في مقاطعها . وهذا
ما يعبر عنه اللغويون المتقدمون بالتقاء الساكنين .

كما في « حَمَارَةٌ » و « صَبَارَةٌ » في قولهم :
حَمَارَةٌ القَيْظِ وَصَبَارَةٌ القَرِ .

ومثل هذه اسماء الفاعلين من المضعف الثلاثي
نحو مادّ وجافّة واسم الفاعل من المضعف على
فاعلٍ وتفاعل نحو شادّ ومتضامّ وغير ذلك من
الابنية التي تعتمد على المضعف اصلاً ثلاثياً وغير
ثلاثي .

ان طريقة العربية في هذه الالفانك ان تصير
الى الادغام ، والادغام يؤدي الى هذا المقطع الطويل
الذي عبر عنه بالتقاء الساكنين . والذي يبدو لي
ان من العرب من كان يجيز الجمع بين المتجانسين
من الاصوات فلا يلجأ الى الادغام وعلى هذا جاء
قول المتنبي :

فلا يُبْرَمُ الامر الذي هو حال

وفك الادغام هذا مما عيب عليه المتنبي ، وما
اظن ان النقاد على حق في تخطئة المتنبي لانه تجاوز
المألوف من القاعدة الصوتية . ومن الاكيد الثابت ان
المتنبي عارف بهذه الحقيقة اللغوية ، ثم انه ليس
مضطراً ان تحمله الضرورة الشعرية هذه المحمل .
وكان في طوقه ان يتحاشى هذه الضرورة - ان
صحت - باستعمال مرادف للكلمة « حال » وهو
شيء متيسر . اما الذي سوّغ له ان يتجاوز المألوف
الشائع من القاعدة الصوتية ان ذلك جائز بل معروف
في لغة من لغات العرب هرباً مما عرف بالتقاء
الساكنين .

ولعل التقاء الساكنين اوضح ما يكون في
الكلمات الثلاثية على « فَعْمَلٌ » او « فَعْمَلٌ » او
« فَعْمَلٌ » نحو تَهْرٌ وطِمْرٌ وقَفْلٌ . والتقاء
الساكنين هما الوسط والصوت الاخير ان لم

تستعمل الكلمة في جملة او يوقف على الحرف الاخير منها . في هذه الحالة لم تحتل العربية في بعض لغاتها واقليمها هذه الصعوبة المتأينة من اجتماع الساكنين فينطلق العرب بتحريك عين الكلمة بحركة مناسبة لحركة الفاء فيقال : تنهَرٌ وتنهَرٌ وطميرٌ وطميرٌ وطفلٌ وطفلٌ .

وقد عرض المبرد في « الكامل » لمادة « فخذ » فاشار الى نطق « فخذ » « باسكان الخاء وكسره » (١) وفي « المحتسب » لابن جنى : « ما سمع فيه « فعل » بضم الفاء واسكان العين الا وسمع فيه « فعل » بضم الفاء والعين » (٢) .

والدافع الى هذه الحركة الهرب من اجتماع صوتين صامتين غير متحركين . على اننا نجد في عاميتنا البغدادية بوجه خاص والعراقية بوجه عام اننا لنجا الى شيء من هذا فنقول « فعل » بكسر العين مجازاة لكسرة الفاء ومثله « اسم » و « عجل » . ونقول « تمر » و « قبر » بضم الميم والباء في حين ان المصري ينطق جميع هذه الالفاظ باسكان عين الكلمة فيها احتمالا منه لاجتماع ساكنين في كلمة واحدة .

(١) الكامل ٢/ ١١٢ .

(٢) المحتسب ١/ ١٩٠ .

واذا استقرينا الابنية الفصيحة القديمة وجدنا بناء « افعال » مثل « اعمار » من الافعال المزيده وهذا الضرب من الافعال قليل الورد ، وقلته تشير الى انه بقية قديمة لافعال كانت شائعة على هذا الوزن . ولعل بسبب ثقلها وما يعرض لها من هذا المقطع الذي اشرنا اليه تخففت منه العربية الفصيحة فصار « اعمار » « احمر » ومثله غيره وهو يؤدي في المعنى وافادة الزيادة والمبالغة ما يؤديه وزن « افعال » .

ومما تخلف في العربية الفصيحة مما يعد آثارا لرحلة لغوية سابقة ما يعرض لاوزان الفعل الثلاثي مما هو خارج على النظام المشهور . ان المعروف في الفعل الثلاثي انه يتبع اوزان ستة بحسب حركة العين في الماضي والمستقبل . والافعال مرتبة حسب ورودها من حيث الكثرة والقلّة ، فما كان مفتوح العين في الماضي مضمومها في المستقبل نحو تصرّ ينصر هو اكثر افعال العربية ، ثم يليه في الكثرة ما كان مفتوح العين في الماضي مكسورها في المستقبل نحو ضرب يضرب وهكذا تنتهي هذه الاوزان بما كان منها مكسور العين في الماضي والمستقبل حسب حسب يحسب . غير ان الناظر في كلام المتقدمين مما اشتملت عليه كتب اللغة والادب يجد فيها شيئا يتجاوز هذا النظام المتبع مما يحمله على الاعتقاد بان

آخرين . ثم انهم ضبطوا اوزانا لا تدخل في عداد
الاوزان الستة فقد ذكروا (قَضِيلُ بِفَضْلِ) بكسر
العين في الماضي وضمها في المستقبل فاجتهدوا بشيء
كثير من التكلف في تفسيرها وحمل ما جاء من ذلك
على (تداخل اللغات) . ان مسألة التداخل شيء
لا تفره طبيعة اللغة .

اما التفسير الحقيقي لهذه الظواهر هو التفسير
التاريخي اي ان الافعال العربية قبل ان يكون لها
نظام الاوزان الستة عرفت حالة من عدم النظام
والاستقرار ثم جنحت مع مرور الزمان الى شيء من
النظام فانتهدت الى ما انتهت اليه .

ولعلنا نلمح من هذه الآثار التاريخية في العربية
شيئا اخر يتصل بمواد المعجم القديم وسنعرض له ،
ومنه ما يتصل بأبنية الجموع . وانت تستطيع ان
تجد في نصوص العربية الفصيحة كما في لغة التنزيل
ان المثني قد استعمل استعمالا خاصة كان تكون
مطابقة بين المسند اليه وهو مثنى والفعل الذي يليه
وهو مسند ، ولكنك تجد شيئا تنعدم فيه هذه
المطابقة .

هذه الافعال لم تكن مستقرة على هذا النحو المرتب
ولا سيما في القرنين الاول والثاني الهجريين . ولا
نعلم ان نجد من الافعال ما قد يكون من الوزن
الاول (باب نصر) عند قوم ، وهو من (باب ضرب)
عند آخرين . ولعل هذه الحالة من عدم الاستقرار
لم تنته الا بعد ان انسلخ القرن الثاني للهجرة وتم
للعربية استقرار وثبات في حالة تشبه القاعدة العامة
ولا يبعد ان يكون هذا الاستقرار قد عرف في المشهور
المتداول من الافعال في الاقل اما غير المشاهير فلا بد
ان تكون قد استمرت على حال من عدم الاستقرار .

والى هذا اشار ابو زيد الانصاري - من علماء
اللغة المتقدمين - فقال : اذا جاوزت المشاهير من
الافعال فانت بالخيار بين الضم والكسر (١) . وقال
الفراء : الاصل في المضارع الكسر (٢) .

ولعل مما ساعد على ضبط هذه الاوزان
وارساء الافعال فيها عنايتهم بالقرآن وضبط لفته
والتزام ما استحسوه من وجوه قراءاته . غير ان
كتب اللغة ظلت تثبت اللغات المختلفة في وزن الافعال
التي اختلفوا فيها ، فقد قالوا في (فسد) هو من
باب (نصر) عند قوم ، وهو من باب (كرم) عند

(١) انظر مقدمة القاموس المحيط .

(٢) لسان العرب (ان) .

التي تتخفف من القيود الثقيلة للضوابط . ومن هنا عرفت العربية الازدواجية منذ اقدم عصورها ، ذلك بأن فيها لغة فصحة يتوخاها الكاتب في كتابته ، ملتزمة بضوابط الاعراب ، ولغة اخرى يقولها الناس ويستعملونها دون ان يلزموا انفسهم بعناء هذه الضوابط ، وربما تجاوز الامر مسألة الاعراب الى الالفاظ نفسها ، فقد يكون في الفاظ الثانية ما هو بعيد عن العربية . ان ذلك من الدخيل الذي اضيف اليها نتيجة اتصال العرب انفسهم بغيرهم من الامم . ومن اجل ذلك حرص عمر على الاخذ بقراءة تعتمد على لغة قريش ، والى مثل هذا كان يرمي عثمان من جمعه القرآن ليكون المسلمون مجتمعين على قراءة واحدة فينبذوا ما كان عندهم مما هو مغاير لما اتفق عليه . ولا يعدم الباحث ان يجد في كتب التفسير والقراءات وكتب الفريش وكتب النحو من هذا الباب شيئا كثيرا من القراءات . ومرد ذلك ان الناس قد فطروا على اساليب في التعبير خاصة بهم ، وبذلك كانت قراءتهم . ان طائفة كبيرة من هذه القراءات الخاصة اعتبرت من شواذ القراءات . ان الشواذ من القراءات هي ما خلا تلك التي اختارها ابن مجاهد المتوفى سنة ٢٢٢ هـ . وقد الف غير واحد من المتقدمين في القراءات الشاذة كابن خالويه وابن جنى وغيرهما .

من تاريخ لغة القرآن

ان البحث في تاريخ القرآن يدلنا على ان لغة القرآن قد طبعت العربية بطابع واضح مبين وقضت بذلك على آثار اللهجات الاقليمية . وارىد ان اخلص الى ان هذه اللغة العالية قد استقرت وانها التزمت الاعراب الذي لم يكن شائعا ومستعملا على نحو ما التزمت به نصوص القرآن وسناتي على اثبات هذا الراي . ومعنى هذا ان العربية في لهجاتها المتعددة لم تكن متقيدة بهذه الضوابط الثقيلة ، ولكن هذه اللغة هي التي جعلت الاعراب السمة اللازمة للعربية، التي اريد لها ان تكون كذلك .

والبحث في تاريخ القرآن يدلنا على الجهود التي بذلت كي تسود لغة التنزيل في وضوحها والتزامها الاعراب ، وقد اشرنا الى خبر قراءة ابن مسعود حين سمعها عمر بن الخطاب .

وما استطاعت لغة القرآن والحديث ان تأتي على نهاية اللهجات الدارجة وهي لغات القبائل والاقاليم ، او قل على العربية المستعملة السهلة

ولعل كثيرا من مواد القراءات الشاذة راجع الى اللغات السائرة وهي ما نسميها في عصرنا بـ « اللهجات الدارجة » .

وانا ذاكر نماذج من الوان هذه القراءات :

جاء من شواذ سورة الفاتحة :

قرا ابو السوار الغنوي : « هياك » بالهاء المكسورة في الآية الخامسة « اياك نعبد » .

وقرا عمر بن فايد : « اياك » بانتخفيف .

وقرا جناح بن حبيش : « نستمين » بكسر النون .

وجاء في شواذ سورة البقرة :

قرا يحيى بن وثاب : « ولا تقربا هذه الشيرة » بكسر الشين والياء ، حكاه ابو زيد . وقراءة « الشيرة » بابدال الياء من الجيم اثبات لظاهرة لغوية في لغة قبيلة او قبائل معينة . وهذا الابدال ما زال معروفا في لهجات دارجة في قرى جنوبي المراق .

وقرا مسلمة بن محارب : « وبعولهن » من قوله تعالى : « وبعولتهن أحقّ بردهنّ » بجزم التاء ، ومن المعلوم ان « البعولة » جمع بتعل ثم الفحولة والسهولة جمعاً فحل وسهل .

وأرى ان اختلاف القوم في صيغ الجموع ، راجع الى اللغات الخاصة او اللهجات الاقليمية . ولعل بسبب من ذلك كثرت ابنية جموع التكسير مثلا في العربية على نحو لا نجد في اية لغة سامية .

وجاء في شواذ سورة المائدة :

قرا بعضهم : « لعباً » بكسر واسكان العين في قوله تعالى : « واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزوا ولعباً » .

وجاء في شواذ سورة الاعراف :

قرا ابن عباس : « الجُمُئل » بضم الجيم وفتح الميم مع التشديد في قوله تعالى : « حتى يلج الجُمُئل في سمّ الخياط » .

ومن المعلوم ان بناء « فَعُئِل » من ابنية جمع التكسير (بضم الفاء وفتح العين مع التشديد) لا يكون مفردا الا فاعلا نحو « راعع » وجمعها « جُمُئل » في حين ان « جُمُئل » مفردا « جُمُئل » بضم فسكون ومعناه الحبل .

وقرا ابو السمال : « الجمل » بفتح فسكون .

وجاء في شواذ سورة طه :

قرأ عكرمة : « اھس » بالسین في قوله تعالى :

« اھس بها على غنمي » .

ومن العلوم ان الإبدال بين السین والشین من

صفات اللغات الخاصة .

وجاء في شواذ سورة الانبياء :

قرأ ابن عباس : « حَضِب » بالضاد في قوله

تعالى : « انکم وما تعبدون من دون الله حضب

جهنم » .

وقرىء بالطاء « حطب » وفي الرواية المثبتة في

المصحف الشريف « حصب » بالصاد .

وجاء في شواذ سورة الحج :

قرئت « صلوات » احدى عشرة قراءة في قوله

تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت

صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم

الله » .

والقراءات هي : صلّوات (بفتحسين)

وصلّوات (بضمسين) وهي قراءة ابي العالية والكلبي

والضحّاك . وصلّوات (بضم فاسكان) وهي قراءة

ابي جعفر بن محمد .

وصلون (بضم الصاد فلام فواو ونون) .

وصلوب (بالباء) وصلوت (بفتح الصاد) وصلوتنا

(بشاء في الآخر مع الف الاطلاق) .

والكلمة جمع صلاة وهي تعني الكنيسة والكلمة

سريانية بخلاف ما ذهب اليه الزمخشري من انها

عبرانية .

ونستطيع ان نوجز ان القراءات في القرآن

تقدم على تغيير في الحركات وتغيير في الابنية وتغيير

في الاسرات والالفاظ بوجه عام . ومن مجموع هذا

نستدل على ان طرق التفسير الخاصة وجدت طريقها

الى لغة التنزيل ، فلم تجد الجهود التي بذلت من

اجل التوحيد .

ويختلف القراء حتى في موضوع الاعراب الذي

التزمه جميعهم ، فهذا يرفع ما ينصبه غيره ، وذلك

يخفّض ما يرفعه هذا . وقد حمل هذا على انه خطأ

من كتاب الوحي .

روى ابو معاوية محمد بن خازم التميمي

السعدي المتوفي سنة ١٩٢ هـ عن هشام بن عروق ابن

الزبير المتوفي سنة ١٤٦ هـ عن ابيه عن عائشة انها

قالت :

« ثلاثة احرف في كتاب الله هن من خطا الكاتب » وهي :

وقوله تعالى : « ان هذان لساحران » سورة طه ٦٣ .

وقوله تعالى : « لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك ، والمقيمون الصلاة ، والمؤتون الزكاة » سورة النساء ١٦٤ .

وقوله تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون » سورة المائدة ٦٩ .

ولا ارى ان يكون هذا من خطا الكاتب ولكني ارى ان العربية في عصر القرآن ما زالت مفتقرة الى الاستقرار في نحوها و صرفها وموادها الاخرى وان كان قدر كبير من مظاهر الاستقرار قد تحقق . ولم تكن هذه الانار الباقية التي خالفت المشهور المعلوم الا البقية التي لا بد ان تبقى بين مرحلة واخرى .

ولم يقبل المعنيون بالدراسات القرآنية من الاوائل بحديث « خطا الكاتب » ولا بما اشتهر من حديث عثمان « ارى فيه لحنًا » ، بل اعتلوا لكل حرف منها واستشهدوا الشعر فقالوا في « ان هذان

لساحران » هي لغة بلحارث بن كعب فهم يقولون : مرات برجلان ، وقبضت منه درهمان ، وجلست بين يده ، وركبت علاه ، وانشدوا لهوير الحارثي :

تروء منا بين اذناه ضربة

دعته الى هابي التراب عقيم

كما اعتلوا لسائر المواضع السابقة علة مناسبة .

وما اظن ان اللحن الذي شاع في المصنوع المتقدمة من الاسلام كان بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الامم دون اسباب اخرى ذلك اني ارى ان اللحن الذي يتصل بالاعراب كان بسبب ان اللغة في عصر القرآن لم تستقر في حدود وضوابط محددة . وشيوع اللحن بين مختلف الطبقات دليل على انه قيد ثقيل لا تحتمله سليقة العرب اللغوية . ومن اجل هذا شاع اللحن فلم تسلم منه طبقة المتعلمين ولا العلية من القوم ولا العلماء . وقد اثر عن كثير من المحندين والعلماء والرواة واهل الادب انهم كانوا يلحنون .

ان شيوع اللحن وما علمناه من وجود اللغات الاقليمية الخاصة في العصور الاسلامية الاولى بل في عصر القرآن ليدفعني الى التساؤل عما نشهده من اللغة المنسجمة الموحدة في نصوص الشعر الجاهلي .

اقول : كان لغة الشعر الجاهلي لغة خاصة وهي مادة مشتركة بين الشعراء الجاهليين ؛ او قل ان للشعراء في الجاهلية والاسلام مادة من عريضة مشتركة لا بد ان يتزود بها من يباشر هذا الضرب من الادب . ومن اجل ذلك لم يكن بد للباحث المؤرخ من العزوف عن هذه الجمهرة الكبيرة من النصوص الجاهلية ذلك انها لا تقدم له فوائد كثيرة يستطيع ان يقتبس مادة تاريخية . لقد عرفنا ان لغة القرآن وما عرض لها في تاريخ القرآن من فوائد هي خير ما يتزود به الباحث في موضوع تاريخ العربية .

في المعجم العربي القديم

لقد عني الباحثون اللغويون في العصر الحديث بموضوع تاريخ اللغات وفاء لعلم اللغة التاريخي العام ولعلم اللغة المقارن ؛ ولقد كان من ذلك ان حَفَل العلم اللغوي بدراسات ذات قيمة في تاريخ اللغات ولا سيما لغات الشعوب المتقدمة . وبمنا ان نعرض لشيء من تاريخ العربية على نحو ما تم انجازه من الدراسات الحديثة في عصرنا الحاضر .

اقول : ربما كانت العربية بدعا بين اخواتها اللغات السامية وذلك لاننا نعرف من امر تاريخ اللغات شيئا يفوق ما نعرفه من بدايات العربية . اننا نعرف مثلا كثيرا من النصوص البابلية والاشورية والاكديية ؛ كما نعرف قدرا عظيما من اللغة الارامية وابجائها ؛ وقل مثل ذلك عن نصوص اللغة العبرانية وسائر اللغات السامية الاخرى ما خلا العربية .

اقول : ما خلا العربية ذلك اني اعلم ان بين يدي الباحثين نصوصا من العربية الجنوبية في نقوش جنوبي الجزيرة العربية وشمالها كما في النقوش القتبانية واللحيانية والسودية .

العربية في صيغها وأبنيتهما قد استوفت غايتها من الضبط والاحكام . ولو وازنا بين ابنية العربية ونظائرها في اللغة العبرانية او في سائر اللغات السامية لوجدنا ان الابنية في لغتنا القديمة جاءت منسجمة ، مشتملة في حركاتها وسكناتها والتثام اصواتها بعضها ببعض على ما اتاح للجاهلي القديم ان ينظمها شعرا لا نجد في لغة سامية اخرى .

ثم اذا جئنا الى ما اشتملت عليه تلك النصوص الجاهلية من معان وجدنا انها حفلت الى جانب ما يفصح عن حياة البداوة وعاداتها ورسومها بمعان تدل على ادراك دقيق للحياة في خيرها وشرها . وليس ادل على ذلك من الاشارات الكثيرة التي حفلت بها مطولة زهير بن ابي سلمى مما يدل على فهمه لكثير من المعاني الانسانية ، ومثل ذلك نجد في سائر النصوص الجاهلية .

اقول : اذا كانت القصيدة الجاهلية قد ادركت في مبانيها ومعانيها هذا القدر السامي من الاجادة في البناء الموسيقي والتوفر على شيء كثير من الفكر الانساني ، فلا بد ان تكون المواد الادبية الجاهلية قد تطورت تطوراً عظيماً ، ومن ثم فلا بد ان تكون قد سبقت هذه المرحلة من النضج مراحل اخرى لا نعرف عنها شيئاً .

وليس في طوق الباحث ان يتخذ من هذه النصوص البدايات الاولى في تاريخ العربية ، فلا يمكن ان تكون نقوش معين وسبأ وحمير في الجنوب ، ولا النقوش القتبانية والحيانية والشمودية في شمالي الجزيرة اصولاً تطورت الى العربية الفصحى التي عرفناها في نصوص الادب ولا في النصوص التي تفصح عن اللهجات العربية . ان النصوص الاولى التي اشرنا اليها بعيدة كل البعد من حيث التطور عن النصوص الجاهلية ، ذلك ان الباحث في تلك النصوص ليقف ازاء مادة لغوية بعيدة كثيراً من حيث مبنائها ومعناها عما تفصح عنه نصوص الادب الجاهلي مثلاً .

لقد ادركت العربية الجاهلية المثلثة بنصوص الشعر الجاهلي مستوىً عالياً من حيث الاسلوب فقد اشتملت على صيغ ومبان هي من الانتقان والاحكام بحيث تهباً منها ان يكون للعرب موازين واقية في الشعر هي الغاية في الضبط والتدقيق من حيث الناحية الموسيقية . وليس ادل على ذلك من ان هذه الموازين والاقية بقيت المثال الذي يحتذى في موسيقى الشعر طوال عصور عدة . ولم يستطع اهل العصور التي تلت ان يضيفوا الى موسيقى الشعر شيئاً . اقول : لم يثاب اولئك الجاهليين ان يحذقوا ذلك الفن الا بعد ان كانت مواد

مشاركة في هذا الموضوع ، واول من بحث في ذلك
المستشرقون مثل نولدكه الالماني وباشييه الفرنسي
ومرجوليوت الانكليزي كما شارك في ذلك العلماء
العرب ولا ننسى في ذلك مشاركة اندكتور طه
حين .

ولقد قيل في وضع الحديث الشريف وما زاد
فيه الوضاعون والكذابون وما غير فيه المدلسون
والضعفاء حتى كان من ذلك نشأة ما سمي في علوم
الحديث بـ « الجرح والتعديل » ثم كانت طبقات
للمحدثين صنفا حسب توفر الثقة والصدق
والامانة فيهم . وكان من كل هذا ان صنفت
المصنفات الضخمة في الاحاديث الموضوعية .

ومن غير شك ان الكذب والافتراء والانتحال
قد عرض لنصوص التاريخ القديم عامة فظهرت كتب
في التاريخ ابتعدت عن العلم فزادت في العبث
استجابة لهوى او خدمة لنحلة او بدعة او ضلالة .
وكل هذا معروف مشهور .

غير اني لم اجد ممن عرض للمادة اللغوية
فاستقرى الصحيح وأشار الى المفتعل المصنوع الا
شذرات من اخبار تشير الى ان شيئا من الوضع
والافتعال قد وقع ، وقد عنيت في هذا الفصل بأمر
رواية اللغة وما عرض لها من مواد هي من غير شك

ولو اتيح لنا ان نوازن بين ما اثر من الوان
العربية القديمة المثلة في النصوص الجنوبية ، وهي
لغات النقوش في معين وسبا وحمر ونظائرهما من
العربية الجنوبية في شمالي الجزيرة وهي اللغات
الفتيانية واللحانية والشمودية ، وبين نصوص
الشعر الجاهلي لاتضح لنا بعد الثقة بينهما .
ومعنى هذا لا يمكننا ان نعد تلك اللغات القديمة
المثلة بالنقوش الاصول المفقودة التي كانت الاساس
الذي تطور في نصوص الشعر الجاهلي . ومعنى هذا
ايضا لا بد من القول : ان حلقات عدة من النصوص
قد ضاعت ففصت بين الاصول وبين ما نجده من
حال العربية في نصوص الشعر الجاهلي .

بعد هذه المقدمة الموجزة لا بد من البحث في
المأثور من العربية القديمة فنعرض لموادها مستقرين
فاحصين لنرى ما عرض لها من التزويد والافتعال
الذي لا بد لنا من كشفه حتى نتبين الصحيح من هذه
اللغة العريقة .

اقول : لقد قيل الكثير في مسألة الانتحال في
الشعر ، ذكر ذلك المتقدمون ويكفي ان نذكر قول
المفضل الضبي الذي ذهب فيه الى ان الشعر
الجاهلي قد نال من خلف الاحمر هجته وانفده
فلا يصلح ابدا . وقد فصل القول ابن سلام الجمحي
في هذه المسألة . ثم كان للمحدثين في عصرنا الحاضر

من صنع الوضاعين ، وما اظن ان جمهرة من هذه
المواد المصنوعة قد عرفها العرب ولاكتها السننهم
نجرت في كلامهم وساعرض لهذه النماذج الكثيرة .

جاء في « المزهر » (١) للسيوطي :

قال ابن فارس في « فقه اللغة » :

تؤخذ اللغة سماعا عن الرواة الثقات ذوي
الصدق والامانة ويتقتى المظنون .

حدثنا علي بن ابراهيم عن المدائني عن ابيه عن
معروف بن حسان عن الليث عن الخليل قال :

« ان النحارير ربما ادخلوا على الناس ما ليس
من كلام العرب ارادة اللبس والتعنيث » .

قال ابن فارس : فليتحرق آخذ اهل الامانة
والصدق والثقة والعدالة فقد بلغنا من امر بعض
مشيخة بغداد ما بلغنا » .

ومن هنا نعلم ان الخليل قد عرض لهذا
الموضوع . وان قوله : « ربما ادخلوا » يعني انهم
ادخلوا ، واستعمال « ربما » في اللغة القديمة تفيد
التكثير كثيرا كما تفيد التقليل في نصوص اخرى
وبذلك قال النحويون .

(١) المزهر ١/١٢٧ - ١٢٨ .

ولشيوع الكذب في اللغة قالوا : « تؤخذ اللغة
من ذوي الصدق والامانة ويتقتى المظنون » . ثم قالوا :
« لا تؤخذ اللغة من الطفل والمجنون » . وتشدد
قوم وغالوا فمنعوا ان تؤخذ من العبد » . وهم
يجرون مجرى اهل الحديث والائر في تحري الصدق
والثقة والامانة .

واذا عرفنا ان الوضع قد عرض للحديث ، وان
الوضاعين والمدلسين من اهل الحديث جمهور كبير ،
فليس غريبا ان نجد شيئا من ذلك قد عرض للمادة
اللفوية . ثم اذا عرفنا ان الوضاعين قد عبثوا في
الحديث الشريف والرسول الكريم يقول :

« من كذب علي منكم متعمدا فلتبوا مقعده
من النار » وادركنا سوء صنيمهم عرفنا ان قضية
الوضع في اللغة شيء ليس ذا خطر كبير .

ولا نذهب بعيدا في الاستدلال على وجود
الانتحال والكذب في المادة اللفوية ، وربما يكفي ان
نذكر برم رؤبه بن العجاج الراجز المشهور بيونس بن
حبيب ، من علماء اللغة المتقدمين ممن اخذ عنهم
سبويه حين كان يكثر السؤال عن اللغة .

قال رؤبة ليونس بعد ان اكثر من مساءلته
وضاق به ذرعا : حتى متى تسألني عن هذه الاباطيل

وازوتها لك ، اما ترى الشيب قد بلغ في راسك
ولحيتك « (١) » .

وحكى ابو عبيدة عن ابن داود بن متمم بن
نويرة شيئا يقرب من ذلك فقال :

« ... قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي
في الجلب والميرة فنزل التحيت فاتيتہ انا وابن نوح
المطاردي فسالناه عن شعر ابيه فجعل يزيد فسي
الاشعار ويضعها لنا ، واذا كلام دون كلام متمم واذا
هو يحتذى على كلامه فيذكر المواضع التي ذكرها
متمم والوقائع التي شهدها ، فلما توالى ذلك علمنا
انه يفعله » (٢) .

اقول : ان هذا الخبر لا يشير الى الكذب
والافتعال في اللغة ولكنه يشير الى الافتعال والكذب
في المادة الادبية ، ولكنني ذكرته لاشير الى ان الافتعال
والوضع والكذب شيء عام فكما عرض للمادة الادبية ،
عرض للغة هذه المادة الادبية . ومن غير شك ان ما
جرى بين يونس بن حبيب ورؤبة بن انجاج الراجز
مفيد كل الافادة في ان كثيرا من مادة الغريب والنواتر
هو مما افتعله اولئك « النحارير » .

ومن المفيد ان اشير الى ان كثيرا مما ساعرض
له من المادة اللغوية يفصح عن انه موضوع ذلك انه
ورد غفلا دون ان يكون في نص فصيح ثبتت نسبتة

الى قائله ، ثم ان وجد منه ما هو في شاهد من شعر
او رجز نادر فلا يعرف قائله ، او ان يكون غير
معروف الا في رؤبة او ابيه او غيرهما من الرجز .

ومن المفيد ان اعرض لما اثر عن كبار اللغويين
النحاة لاشير الى شيء مما ذهبت اليه من مسألة
الوضع والافتعال في اللغة .

جاء في اخبار ابي العباس محمد بن يزيد المبرد
صاحب « الكامل » (١) :

« وقال ابو عبدالله المبرقع : كان المبرد لعظم
حفظه اللغة واتساعه يثبهم ، فتوافقنا على مسألة
لا اصل لها نساله عنها لننظر كيف يجيب ، وكنا
قبل ذلك تمارينا في عروض بيت الشاعر :
ابا منذر افتيت فاستبق بعضنا

حنانيك بعض الشر اهون من بعض
فقال قوم : هو من البحر الفلاني ، وقال
آخر : هو من البحر الفلاني ففقطعناه وتردد على
افواهنا تقطيعه ومنه « ق بعضنا » فقلت : ايدك
الله تعالى ، ما القبعض ؟ فقال : القطن ، يصدق
ذلك قول الشاعر :

كان سنامها حشبي القبعضا

(١) نزعة الانبياء (ط مكتبة الاندلس ببغداد ص ٢٢٠) .

(١) نزعة الانبياء (ط مكتبة الاندلس ببغداد) ص ٢٢٠ .

(٢) انباء الرواة ١٧٢/٣ .

قال : فقلت لاصحابي : ترون الجواب
والشاهد ، ان كان صحيحا فهو عجيب ، وان كان
اخترق الجواب في الحال فهو اعجب .

ومثل هذا ما ورد في اخبار ابي عمر الزاهد
« غلام ثعلب » فقد اشتهر عنه انه لا يسأل الا
اجاب ، فقد كان كثير الاملاء ، عالما بالاخبار واللغة
والادب ، متهما بالكذب والتزويد .

جاء في « انباه الرواة » (٢) للقفطي :

« ويروى ان جماعة من اهل بغداد اجتازوا
على « قنطرة الصّراة » وتذاكروا كذبه فقال بعضهم :
انا اصحّف له « القنطرة » واساله عنها فانه يجيب
بشيء آخر ، فلما صرنا بين يديه قال : ايها الشيخ ما
الهرطنتي عند العرب ؟ فذكر شيئا قد انسيته
فتضحكننا واتمنا المجلس وانصرفنا ، فلما كان
بعد شهر ذكرنا الحديث فوضعنا رجلا غير ذلك
فساله فقال له : ما الهرطنتي ؟ فقال : الست قد
سالت عن هذه المسألة منذ كذا وكذا ؟ فقال : هي
كذا فما درينا من اي الامرين نعجب . من ذكائه ،
ان كان علما فهو اتعاع طريف ، وان كان كذبا في

(٢) انباه الرواة ١٧٢/٢

الحال ثم قد حفظه ، فلما سئل عنه ذكر الوقت
والمسألة فاجاب بذلك الجواب فهو اطرف .

ومثل هذه الاخبار كثير في مصادرنا العربية ،
وهي مفيدة كل الافادة في البحث اللغوي التاريخي .

اقول : قد تكون هذه الاخبار موضوعة التماسا
للسمر او النيل من فلان او فلان ممن اشتهروا
بالعلم ، او قد تكون قد حيكت لبيان فضل فلان او
فلان . غير اني افيد من كل ذلك ان لا بد من شيء من
اللغة قد وضع ، وانه بسبب من ذلك كانت لنا مواد
ضخمة تخلفت في بطون المطولات من كتب اللغة .

واني لا عرض لشيء من ذلك اتخذ منه نماذج ،
واود ان اقول باديء ذي بدء :

ان هذه المخلفات اللغوية تتناول في الغالب
المعاني الخلقية الحسية مما يدخل في باب « خلق
الانسان والحيوان » . ثم انها تشمل على ابيئة
خاصة نادرة . اقول : نادرة لانها قليلة الوجود في
لغتنا القديمة العربية ، فهي والحالة هذه قد عتقت
عليها الزمان في عربيتنا المعاصرة .

ويبدو لي ان اولئك التحارير الكبر قد اهدتوا
الى هذا الوضع والانتعال سعيا وراء الغريب

والتادر وولوعا بتلك الاوابد النافرة وحبا باظهار العلم والاجتهاد فيه . ثم انهم اتخذوا من بعض المواد التي ثبتت صحتها اصولا فزادوا في اصواتها صوتا ظنوا انه يزيد المعنى قوة فقالوا مثلا :

خَنْبُثٌ وَخَنْبَايِثٌ ، وَالرَّجْسَلُ الْخَنْبُثُ وَالْخَنْبَايِثُ هُوَ الْمَدْمُومُ الْخَائِنُ . وَمَنْ غَيْرُ شَكِّ اَنْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ لَمْ تَرُدَّ فِي نَصِّ قَدِيمٍ مَنْسُوبٍ اَوْ غَيْرِ مَنْسُوبٍ .

والذي اراد انها صنعت من مادة (خبث) فزادوا في اصواتها التون والتزموا بناء غريبا من ابنية الرباعي وذهبوا الى المعنى الذي ارادوه وهو الذي لا يعتمد عن اصل المادة الثلاثية كثيرا . ومن المفيد ان ابنه الدارس الى ان بناء « نُعَالِيلٌ » بضم اوله وكسر ما قبل الآخر من الابنية التي هُجرت في العربية الفصيحة منذ ازمان طويلة بله عربيتنا المعاصرة .

هذا مثل سقته لاخلص منه الى تحقيق واف اعتمدت فيه على كتاب « الجهمرة » لابن دريد واقتصرته منه على ما جاء في « ابواب الرباعي الصحيح من المجلد الثالث » . وسوف اجتزىء من

هذا القدر الذي احتفظت لمبحث مفصل غير هذا الموجز ، بسر طائفة من الالفاظ التي وقفت عليها في الكتاب مقتصرًا على معنى « الصلب الشديد » فاذكر :

الْمَسْبِيلُ وَالنَّبْسِيلُ وَالْكَنْبُثُ وَالْكَتَابِيثُ وَالْجَيْبِيثُ وَالْجَلَابِيثُ وَالْجَلْعَانُ وَالْجَلْعَانُ وَالْجَلْعَانُ وَالْجَلْعَانُ وَالْجَلْعَانُ وَالْجَلْعَانُ .

ومن هذا قدر كبير يعد بالعشرات متصرفا الى معنى الصلابة والشدة .

اقول : ان هذه الطائفة من الالفاظ وهي قليل من كثير في معنى « الصلب الشديد » او « الشديد الصلب » قد وردت على هذا اللون النافر من البناء وانها لم ترد في نص ايا كان موضوعا ام غير موضوع . ثم انها لم تلتصق بموصوف معروف ، فلم اتبين اكانت من صفات العاقلين ولو ازمهم ام من صفات غير العاقل حيوانا كان ام جمادا .

وفي المعجم القديم طوائف اخرى من ابنية غريبة يجتمع في كل منها عدد ضخم من الالفاظ التي تعني الصفات الخلقية كالطول والقصر والضخافة والغليظ والثقل والاسترخاء وغير ذلك .

العربية والمصطلح العلمي

العربية احدى اللغات الحية . وهذا يقتضيها ان نفهم فنسلم بانها لغة متطورة تخضع لما تخضع له اللغات الحية عامة . وهي احدى لغات سامية اندثرت معالمها وامحت اصولها فلم تبق الا هذه اللغة القديمة . ولا بد من الاستطراد قليلا فأقول انها الوحيدة بين المجموعة السامية التي ثبتت على مر العصور في حين لم تثبت تلك اللغات . سيقول قائل ان العبرانية لغة قائمة وانا اقول ان هذه العبرانية الجديدة ليست الا مادة جديدة اعيد بناؤها بصورة قسرية جبرية لتكون لغة مجاميع بشرية هي ليست لغتهم . ومن اجل هذا فان علم اللغة الحديث يرفض ان تكون هذه الاداة اللغة الطبيعية لهذه الاشتات المتنافرة .

ولا بد لي ان ادع هذا الاستطراد الموجز فأعود الى العربية لأقرر انها اللغة الحية وانها ثبتت ازاء العصور . وانها كانت خير وسيلة للاعراب عن حضارات مزدهرة وآية ذلك ان العلم القديم بفكره وفلسفته وسائر الوانه لم يكن له من وسيلة غير

على ان الباحث لا يعدم ان يجد الفاظا غريبة اخرى نادرة لا تعرف في نص من النصوص وهي تعني صفات غير حية نحو المداهنة والخيانة . غير ان هذه الالفاظ قليلة اذا ما قيست بالالفاظ الغريبة ذات الدلالة الحية .

لقد حفل المعجم القديم بهذه المواد التي فقدت الحياة او قل انها لم تر الحياة في تاريخها الطويل ذلك انها لم ترد في شيء من كلامهم .

ان الدارس المدقق ليحصى من هذا اللغو الشيء الكثير الذي انقل العربية فتحجر فيها ولغظته الحياة منذ كان ووضع .

هذه العربية السمحة ولا اراني مضافا انسياقا عاطفيا حين اقرر انها كانت سيدة لغات العالم القديم خلال قرون متلاحقة ابتداء من القرن السابع الميلادي ، ومن اجل هذا فقد كتب المفكرون من غير العرب ونسوا لغاتهم وقرروا ان لا سبيل الى الاعراب عن الفكر الفلسفي مثلا الا بهذه العربية .

ومن هنا كنا قد ورثنا هذه اللغة القديمة وكان لها من اسباب الحياة ما اعان على استمرارها بهيئة معلومة ذلك اننا معاصر العرب قد ورثنا ترانا ضخما هو مادة هذه اللغة . ولولا هذا التراث وعلى راسه كتاب الله - جل وعلا - لال امر هذه اللغة الى لغات عدة كما هي الحال مثلا في اللغات الرومانية التي تحولت الى الرومانية والابطالية والفرنسية والاسبانية والبرتغالية .

لم يكن شيء من هذا في العربية ، وذلك ان العربية ما زالت لغة امة باسرها في بقاء نسيحة من العالم هي البلاد العربية . ولو عمل اهل العربية على رعاية هذه اللغة لكان لهم ان يوسعوا من هذه الرقعة فتم لغتهم في بقاء افريقية وغير افريقية ممن فطروا على الاسلام دينا وآمنوا به فكرا وسلوكا . ومع كل هذا اننا نواجه مشكلات في هذه العربية بسبب اننا لا نملكها كما كان اسلافنا يملكون منها . واننا نتعلمها تعلمنا ونواجه في تعلمها الصعاب ، واننا قد نعرف

عنها شاعرين ام غير شاعرين انسياقا مع مفهوم خاطيء خال هو ان هذه اللغة قاصرة عن مواجهة الفكر الحديث . ثم اننا مقصرون في تعلمها وهذا التقصير يعني ان وسائل تعلمها مختلفة عن العلم الصحيح في وسائل التربية الحديثة . ثم ان مادتها لا بد ان تكون شيئا اخر ليس ما درج عليه المعنيون بتدريسها .

ومن هنا كان عليّ ان اقول : اننا لا بد ان نسلم ان العربية لغة متطورة وان عربية عصرنا الحاضر غير العربية القديمة . ولعلي استطيع ان اقول ان عربية هذه الايام غيرها منذ عشرين او ثلاثين سنة . ثم اننا لا نملك هذه العربية بسبب ان سلوكنا اللغوي بعيد عنها فاننا نبشر طرائق في الكلام والخطاب مستمدة من مواد تتصل بما يسمى اللهجات الحديثة وهذه اللهجات الحديثة مختلفة في مستواها بين جهة واخرى ثم هي مختلفة في مستوياتها ومادتها بين الطبقات المختلفة في البيئة الواحدة .

كل هذا فرض علينا ان نتدبر امر اللغة انفضيحة ايمانا منا انها الوسيلة الوحيدة التي تصلح لحياة جديدة ذات حضارة جديدة هي الحضارة العالمية المعاصرة بتعميقها وتركيبها . ثم علينا ان نقرر ان هذه العربية الفصيحة قادرة على ان تكون احدى اللغات العالمية للاعراب عن الحضارة الحديثة .

اللغات الحديثة المتطورة يهدينا الى ان مادة تلك اللغات التي تقدم للدارسين هي شيء حديث متصل من ناحية المسيرة التاريخية بالمواد القديمة .

ان هذا يفرض علينا ان نقرر ان النحو العربي مثلا لا بد ان يكون نحوا جديدا فهل نملك شيئا من ذلك الجواب : لا . اننا لا نملك من ذلك شيئا بسبب من ان العاملين في عملية التعليم التربوية لم يعانوا التفكير في هذه المشكلة الخطيرة .

اننا ورثنا النحو القديم وكان قد سلخ من عمره اثني عشر قرنا . وكان السلف الاوائل قد وضعوا البداية النحوية ليكون مادة تدفع غائلة اللحن الذي تفشى في لغة المعريين من العرب بسبب مخالطتهم للاعاجم المتعربين الذين انضموا في المجتمع الاسلامي . ومن غير شك ان نحوا وضع ليفي بهذا الغرض لا بد ان يكون مادة تعلمه موضوعية كما نقول في عصرنا . غير انه ما لبث ان كان احد فروع المعرفة ابتداء من اوائل القرن الثالث الهجري . وهذا يعني انه صار مادة للدرس والاجتهاد وصار له اصحابه ممن عرفوا بالنحاة . ثم كان اولئك ان صاروا طبقات على مر العصور ثم كان ان تحول من مواد بسيرة يراد بها غرضا تعليميا وهو عصمة اللسان من غائلة اللحن الى مواد جديدة لا يراد لها ان تكون ضوابط بسيرة لغرض تعليمي معروف . ولقد ادى هذا الى ان

قلت اننا لا نملك هذه اللغة فلا نستطيع ان نعبر بها تعبيرا يبلغ القصد كما لا نستطيع ان تؤدي بها كتابة ما يدور في افكارنا . ومن اجل هذا فلا بد من التفكير في المشكلة اللغوية .

اقول ان العربية ليست بدعا بين اللغات وانها ليست غريبة معقدة كما يدعي جمهرة من المثقفين العرب . وانها تملك من وسائل الحياة ما يقرر انها لغة عالية المستوى كما يؤيد ذلك علم اللغة الحديث .

اخلى من كل هذا الى اننا نتعلمها خطأ ومادة ومنهجا . ومن هنا تكون المشكلات على ضريين الاول يتصل بالمادة والثاني يتصل بالمنهج .

القرب الاول

لم يرد المختصون من علماء العربية والمعنيين بتعليمها من الاساتذة والمدرسين والمعلمين ان يقرروا ان العربية لغة حديثة وانها بسبب من ذلك ذات مادة حديثة ينبغي ان تعلم . وهذه المادة الحديثة تختلف عن المادة القديمة اختلافا بينا . وينبغي على هذا ان لا بد لنا من ادب حديث وفكر حديث ونحو حديث واسلوب حديث ومعجم حديث . هذا لا يعني اننا تقتصر على هذه الالوان الحديثة وذلك ان النهج التاريخي يقتضينا ان نلم بالاصول فنسلم ان المادة اللغوية تخضع للتطور التاريخي . وان النظر الى

اقول : كان الاعراب النتيجة التي ادى اليها العامل وهو السبب ، فاذا لم يروا هذا الاثر قدره فكان الاعراب التقديري يرى وهو شيء متخيل متوهم . ثم ان كانت الكلمة مما لا يقبل الحركة في الاخر سميت مبنية وهي لا بد ان تخضع لنظام جمهرة الكلمات في العربية وهي الكلمات العربية فأعربت بنظام خاص سمي الاعراب المحلي وبذلك لا تفلت كلمة من الكلم في العربية من هذا الحكم .

اقول : ان المتبع لمواد النحو في كتبه القديمة واقصد بالكتب القديمة تلك التي درستها اجيالنا السابقة في باب « علوم الجادة » وهي التي تدخل في آلات المعلمين حتى جيلنا السابق ، ان المتبع لهذه الكتب يجد مواد وطرائق بعيدة كل البعد عن النهج السليم في تحرير النحو في عصرنا ولا سيما في اللغات المتقدمة الغربية . ولا ارى حاجة لضرب الامثلة على ذلك .

ان هذه الكتب القديمة وجلها شروح لالافية وتعليق على شواهدا تختلف عن نظرات النحويين المتقدمين من طبقات النحاة الاوائل . فاین هذه من آراء الخليل بن أحمد وسيبويه في « الكتاب » .

اصح النحو مادة معقدة عميرة المثال تبعد عن تناول المشكلة اللغوية ذلك انها اقتبست من المنطق الارسطي واساليبه مما احال المادة اللغوية الى شيء اخر ، لقد تحول النحو الى النحو الجدلي الذي يستند على العلة والمعلول . ومن هنا كان النحو علم الاعراب والى هذا اشار الزمخشري في مقدمة كتابه « المفصل » الى ان علم النحو هو الاعراب وادى هذا الى ان صار العربي يبحث في حركة اخر الكلمة : ولم يكتف النحاة بهذا بل بحثوا في علة الاعراب ، ومن هنا قرروا ان الاسم معرب لانه كيت وكيت وان كل ما اشبهه كان معربا . ومن اجل هذا شابه الفعل المستقبل الاسم فكان مضارعا له .

رب سائل يسأل وما ضير هذه النظرة على الحقيقة اللغوية والجواب عن هذا ان شيئا كثيرا يتصل بمادة الفعل قد اهمل . الا ترى انهم جعلوا حد الفعل : الحدث المقترن بزمن ! ولكننا لا نعرف وجه الزمن في باب الفعل في اي من كتب النحو القديم . ثم لم يكتفوا بالعلة الاولى حتى توصلوا الى ما اسموه بالعلل الثواني والثالث . ثم كانهم لمحوا ان الكلمة العربية معربة اصالة ولذلك اهتموا بالاعراب فنظروا اليه على انه اثر يجلبه العامل ولا بد من الوقوف عند هذه النظرة لتبين اثر المنطق فيها .

ومما حمل الضيم على الدراسات النحوية في
صغرنا انها اتخذت الالفية وشروحها الكتب الجامعية
التي يدرسها الطلاب فضاقوا بها ذرعا والشكوى
ريسة .

ومن نتائج هذه الدراسة ان الكتب المدرسية
المدارس الثانوية والاعدادية وحتى الابتدائية
تنبعت شيئا مما جاء في تلك الكتب التي يقرؤها
تدارسون في الدراسات العليا .

اريد ان اخلص من هذه المقدمة التاريخية الى
الدراسات العربية في اوائل تطورها وذلك في مطلع العصور
الاسلامية قد حفلت بالثروة العلمية . وهذه الثروة
العلمية كان لها مصطلح يكاد يكون مكتملا ناضجا .
قد توفرت في علوم العربية مادة اصطلاحية ضخمة
دقيقة .

لقد كان للنحاة الأوائل مصطلحهم الدقيق
الذي عبر عن نضج كبير وادراك تام لسمو هذه اللغة
التي لم تستطع القرون المتلاحقة ان تضيف الى
المعجم النحوي شيئا من مصطلح جديد . ومثل هذا
المنطق على سائر علوم اللغة العربية فهناك مصطلح
للبلغة في علومها المختلفة ، وهناك مصطلح لغوي

يشتمل على الالفاظ اللغوية الصرفية والعروضية .
ثم بدا بنشوء العلوم الاسلامية في ازدهار الحضارة
الاسلامية ابتداء بعصر النبوة ، مصطلح اسلامي
يتناول مختلف العلوم الاسلامية ، فلدينا مصطلح في
الحديث بلغ الذروة في التدقيق والضبط ، ولدينا
مصطلح لعلوم القرآن .

ثم كتب للعلوم الاسلامية ان تتسع دائرتها
باتصالها بالجانب الفلسفي فنشأ علم الكلام وهو
نواة الفلسفة الاسلامية . ومن هنا كانت استجابة
العربية للعلوم الجديدة استجابة كاملة . فكان
المصطلح الفلسفي الذي تناول المادة الفلسفية في
الوانها المختلفة .

ومن هنا انطلق اللغويون الاقدمون واصحاب
المعارف المختلفة لتنفيذ هذه الالوان الاصطلاحية
فظهرت المصنفات التي تناولت الالفاظ الاسلامية
وهي كثيرة وما زال في المكتبة العربية شيء من ذلك .
وما كتاب التعريفات للشيخ الجرجاني الا من هذا
الباب ومثله كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي .

اقول : ان العربية الفصيحة استطاعت ان
تكون لغة العلم خلال قرون عدة وقد كتب بها

لابد لهم من اداة لغوية تتعرب بها العلوم الحديثة ومن هنا نشأت مشكلة المصطلح الفني Le Term Technique لقد نهض المختصون من الافراد والهيات بهذا الواجب الثقيل ونظروا في لغتهم نظر العالم الحاذق فوجدوا ان في العربية من الوسائل ما يعين على حل هذه المشكلة .

لقد اتبع الاقدمون طريقين لتوفير المصطلح الاول : انهم فتشوا في العربية عن اللفظ السهل الذي لا ينصرف الى معان كثيرة فتواضعوا عليه مقابل للكلمة الاعجمية الاصطلاحية وبذلك انتقلت الكلمة العربية الى شيء من « مصطلح » .

والثاني : انهم لجأوا الى التعريب وقصدوا به ان تؤخذ الكلمة الاعجمية باصواتها او بتغيير شيء من ذلك ووضعها في العربية بحيث لا تنأى كثيرا عن الابنية المعروفة في اللغة العربية .

وبهذه الطريقة الثانية نشأت الفلسفة والموسيقى والهيولى والجغرافيا ثم سار على هذا السنن المتأخرون فقالوا الفلسفة والديمقراطية والاستقرائية ومثل هذا كثير .

وقد جرى نغم من المحدثين على هذه الطريقة فحلا لهم ان يقولوا « التلفزة » للتلفزيون .

المختصون من عرب وغير عرب مسلمين ، ولقد وجد غير العرب ومن غير المسلمين انها امثل لغة للتعبير عن الفكر الفلسفي وان فيها مكتبة تمد الباحث المتخصص بطائفة عن الالفاظ الاصطلاحية . ومن اجل ذلك نقل اليها التراجمة النصارى فلسفة الاغريق وعلومهم ، ذلك انهم وجدوا ان سرابانيتهم لا تؤدي هذه الاغراض الجديدة .

ولكن المجتمع العربي بعد ان دهته اللدواهي وتفرق ايما تفرق واستولى عليه الاعاجم من اهم شيء انقطع عن حضارته فاصاب لفته الهرم واصبحت شيئا بعيدا لا يتبها له ان يناله بيسر فعم الجهل وانقطع معين الحضارة الزاخر وسادت ما سمي في التاريخ حقبة « الفترة المظلمة » .

اقول هي « المظلمة » بالقياس الى الجماهير الواسعة بحيث صارت العربية اهتمام الطبقة التي تسمى اليها مثقوية متعلمة .

ثم جاء العصر الحديث وجاءت النهضة العربية بحضارتها ومدنيتها ووجد العرب انفسهم متخلفين عنها ذلك ان مصادر العلم الحديث مصادر اجنبية . وانهم لم يحدقوا لغتهم بل فقدوها ابان قرون عدة خلال الحكم العثماني فيكيف يتاح لهم ان ينهضوا وان يواكبوا الحضارة الجديدة .

ان مواد العلم الحديث كثيرة ومن اجل ذلك
فلا بد ان تنهيا مادة كبيرة في المصطلحات لتسد
سدّها . وقد بذل المعنيون في هذا السبيل جهودا
كبيرة في هذا الباب .

ولولا ان هذه الجهود مفتقرة الى التوحيد
فيما بينها لامكن ان تحل هذه المشكلة . ومن هنا
فلا بد من توحيد هذه الجهود المختلفة .

وما اراني الا مكررا الكلام على غنى العربية
ووسائلها الخاصة في توفير المصطلح لقد كثر القول
في هذا وكثرت الدراسات فاشير مثلا الى قدرة
العربية الاشتقاقية وانها تتسع في الاشتقاق الى حد
الاشتقاق من اسماء الاعيان كالماء والهواء والحجر
والحديد والخشب وما الى ذلك .

وان لها من ابنيتها ما يعين على توفير مسائل
كثيرة كالمصدر الصناعي الذي صنعت به النسبية
والمادية والكهربائية والحيوية والديمقراطية
والوجودية ومثل هذا كثير .

وان لها من ابنية اسماء الالة وسائر المشتقات
ما هو كفيل في توفير مادة اصطلاحية كبيرة .

ولقد دل الاستقراء على ان في العربية ابنية لم
يلتفت اليها الصرفيون ولم يقيدوها في مصنفاتهم
وهي تصلح ان تؤدي اغراضا علمية .

من ذلك مادة « فعال » بكسر الفاء وهي من
ابنية اسماء الالة في اللغة القديمة وهي اسهل واولى
من المشتقات القياسية .

وقد ورد مما جاء على هذه الصيغة مئات من
الالفاظ التي تستعمل ادوات واليات ومن ذلك :

العيار والصمام والمعاصم والخياط والرباط
والوكاء والنقاب والقناع واللجام ومثل هذا كثير لا
ياتي عليه الا الاستقراء الوافي في امهات كتب العربية .

ومثل هذه الابنية التي لم يفتن اليها المحدثون
ما جاء على « فعلة » بضم الفاء مرادا به اسم المفعول
القديم قبل ان تكون له قاعدة « مفعول » من الثلاثي
ومنه اللمزة اي السوز واللقمة اي المفوم والضحكة
اي المضحوك منه وكان اهل الاقتصاد مصيبيين كل
الاصابة حين قالوا « العملة » بالمعنى المعروف .

ونستطيع ان نوصي توصيات عامة بشأن
المصطلح الفني المقترح وهي :

(ا) ان يكون المصطلح من الالفاظ التي لا تنصرف
معانيها الى مدلولات كثيرة .

التعريب مشكلة ؟

يحسن بي ان اعود قليلا الى مادة « عرب »
 لادرك منها ما يعين على تفهم المشكلة .
 جاء في كتب اللغة : قال الازهري الاعراب
 والتعريب معناهما واحد وهو الابانة . يقال : اعرّب
 عنه لسانه وعرب اي ابان وافصح .
 ويقال : اعرّب عما في ضميرك اي ابين . ومن
 هذا يقال للرجل الذي افصح بالكلام : اعرّب .
 وقال ابو زيد الانصاري : يقال : اعرّب
 الاعجمي اعراباً ، وتمرّب تعرّباً ، واستعرّب
 استعراباً .

واعرّب به : بيّنه
 وعربّه كأعرّبته واعرّب بحجّته اي افصح
 بها ولم يشقّ احداً ، قال الكميّ :

وجدنا لكم في آل خم آية

تأولها منّا تقيّ منعرّب

ومعرب في البيت منفصح بالحق لا يتوقاهم

٢ ان يكون المصطلح من الالفاظ السهلة اليسيرة
 في بنائها من حيث الاصوات .

٣ ان تكون بسيطة لا مركبة قدر الامكان وبذلك
 يستغنى ما امكن عن الالفاظ المنحوتة والالفاظ
 المضافة .

٤ ان يكون المصطلح من الالفاظ المعروفة فلا يلجا
 الى الغريب الا عند الضرورة او في حالة ان
 اللفظ الغريب كان مصطلحا قديما معروفا
 للفني ذاته .

٥ ان يكون المصطلح قائما على المادة المرادة فلا
 يشترك فيه موضوع اخر .

٦ يتجنب العرب عند اختيار المصطلح ويفضل
 عليه الكلم العربي .

اخلص الى ان مشكلة المصطلح مشكلة خطيرة
 ينبغي ان ننظر اليها نظرا جادا وذلك لاننا في حقبة
 حرجة نقف فيها من الحضارة الحديثة موقفا خاصا
 يفرض علينا ان نكون واعين اشد الوعي .

وقال الجوهري : مُعَرَّبٌ مَفْصَحٌ بِالتَّفْصِيلِ
فِي الكَلَامِ عَلَى الشَّاهِدِ المَذْكُورِ وَهُوَ قَوْلُ الكَمِيتِ .

وَعَرَّبَ مَنْطِقَهُ : هَذَّبَهُ مِنَ اللِّحْنِ وَمِثْلُهُ اَعْرَبَ
كَلَامَهُ اِذَا لَمْ يَلْحَنْ فِي الِاعْرَابِ .

وَيُقَالُ : عَرَّبْتُ لَهُ الكَلَامَ تَعْرِيْبًا ، وَاَعْرَبْتُ
لَهُ اَعْرَابًا اِذَا بَيَّنَّنْتَهُ لَهُ حَتَّى لَا يَكُوْنَ فِيهِ حَضْرَمَةٌ .

وَعَرَّبَ الرَّجُلُ يَعْرِبُ عَرْبًا وَعَرُوبًا عَنْ
ثَعْلَبٍ ، وَعَرُوبَةٌ وَعَرَابَةٌ وَعَرُوبِيَّةٌ ، كَقَتْصَحَّ .
وَعَرَّبَ اِذَا قَتَّصَحَّ بَعْدَ لُكْنَةٍ فِي لِسَانِهِ . وَرَجُلٌ
عَرِيبٌ مُعَرَّبٌ .

وَعَرَّبْتُهُ : عَلَّمْتُهُ الْعَرَبِيَّةَ .

ان الدارس لهذه اللفظة التاريخية ليجد فيها
سعة عجيبة فهي تنصرف الى معان ودلالات تبعد
احيانا عن هذا الذي سبقت الاشارة اليه . فاناسي
هذه اللفظة وهي بعيدة عن صفات ولوازم العاقل
فتكون للدابة مثلاً .

ومن ذلك المُعَرَّبُ مِنَ الخَيْلِ . الَّذِي لَيْسَ
فِيهِ عَرَقٌ هَجِينٌ . وَالِاعْرَابُ : مَعْرِفَتُكَ بِالْفَرَسِ
الْعَرَبِيِّ مِنَ الْهَجِينِ ، وَمِنْهُ قِيلَ الخَيْلُ الْعَرَابِيَّةُ اَي
عَرَبِيَّةٌ مَنْسُوبَةٌ اِلَى الْعَرَبِ .

والتعريب : ان يتخذ قرناً عربياً ، ومنه
قيل : مُعَرَّبٌ اَي خَلِصَتْ عَرَبِيَّتُهُ .

وَعَرَّبَ الْفَرَسَ : بَزَّغَهُ ، وَذَلِكَ اِنْ
تَنَشَّفَ اَسْفَلَ حَافِرَهُ ، وَمَعْنَاهُ اِنَّهُ قَدْ بَانَ
بِذَلِكَ مَا كَانَ خَفِيًّا مِنْ اَمْرِهِ لِظُهُورِهِ اِلَى مِرَاةِ الْعَيْنِ
بَعْدَ مَا كَانَ مُسْتَوْرًا وَبِذَلِكَ تَعْرِفُ حَالَهُ اَصْلَبُ هُوَ
اَمْ رِخْوٌ ، وَصَحِيحٌ هُوَ اَمْ سَقِيمٌ .

وقال الازهري : والتعريب تعريب الفرس ،
وهو ان يكوى على اشاعر حافره ، في مواضع ، ثم
يُبَزَّغُ بِمِيزْغٍ بَزَّغًا رَفِيقًا لَا يُؤْتِرُ فِي عَصْبِهِ
لِشِدَّةِ اَشْعَرِهِ .

ومن الطريف ان اشير الى ان « الاعراب »
و « التعريب » الفحش وما قبح من الكلام . قال ابن
عباس في قوله تعالى : « فلا رفث ولا فسوق »
هو العرابية في كلام العرب . والعرابية كانه اسم
موضوع من التعريب وهو ما قبح من الكلام .

وقالوا : وتعريب الاسم الاعجمي ان تنفوه
به العرب على منهاجها ، تقول : عَرَّبْتُهُ الْعَرَبِ
وَاَعْرَبْتُهُ اَيْضًا .

لقد ولد اللغويون الاوائل « مصطلح »
« التعريب » وارسوه على اصول راسخة ثابتة . ان
التعريب عندهم توليد « المُعَرَّبِ » وهو الكلم

ومثل هذا قالوا في البهرج من العملة غير
الخالصة النقية انها « مُعْرَبَةٌ » فالدرهم مُعْرَبٌ
اي انه مدخول فيه .

ومن هنا لا بد ان اعقد بين «المعرب» والمُعْرَبُ ،
اي ان في الاول عنصرا غريبا ومن ذلك ما شاع في
شعر الغزل لدى شعراء العامة في العراق الجنوبي
مثلا فقالوا : « هو مُعْرَبٌ عن الريم » اي شبه
للرئم وهو الغزال . لاجتماع صفات خلقية في كليهما
كالمعين والجيد والتناسق .

ثم اتنا نرى مصطلح « الدخيل » في مصادرنا
اللغوية القديمة . لقد كان كتاب الشهاب الخفاجي
موسوما بـ « شفاء الغليل فيما في لغة العرب من
الدخيل » .

ومن النظر في كتاب الخفاجي هذا وفي سائر
ما اطلق عليه « الدخيل » يبدو لنا ان « الدخيل »
ليس مصطلحا فنيا كالمُعْرَبُ الذي الحق بلغة
العرب فكان شيئا منها ولكنه في الاعم الاغلب ما
استعمله الكتاب وذوو الحاجة من اصحاب
الاختصاصات المختلفة من الكلم الاعجمي . ومعنى
هذا ان طائفة كبيرة مما اطلق عليه « الدخيل » مادة
غريبة ليست من لغة العرب وانها مرهونة بزمانها
ومكانها . ولا نعدم ان نجد بين اللغويين الاقدمين من
جعل الدخيل والمعرب شيئا واحدا .

الاعجمي السائر في نمط من الانماط العربية وهي
« الابنية » عندهم او الصيغ . وهذا يعني ان الكلمة
الاعجمية ان لم توافق بنساء من ابينتهم عولجت
معالجة خاصة بالحذف والتغيير والزيادة في اصواتها
لتجئ موافقة للاوزان العربية وللاصوات العربية في
الوقت نفسه .

وقد اتفقوا على هذا بعد ان شاعت المُعْرَبَات
وكثر التعريب لان الحاجة الى ذلك قائمة في كل
عصر . ولشيوخ هذه الواد العربية وكثرتها ودخولها
في مصنفات الكتاب والادباء والعلماء والحكماء
والفلاسفة اخترع فريق من اللغويين بتصنيف الكتب
والمعجمات التي انصرفت الى موضوع « العرب » .

المعرب والدخيل :

ادركنا كيف اطلقوا المُعْرَبُ على طائفة من
الكلم الاعجمي الذي نقلوه الى العربية بعد ان اجروا
عليه ما جملة موافقا لابنيتهم ، فكان المُعْرَبُ من
الكلمات ما اشبه الكلم العربي . وما زال شيء من
هذا المعنى مستعملا في بعض الالسن الدارجة فقد
يقال في المواطن القروية في العراق مثلا في الكلام على
طائفة من الحيوان انها مُعْرَبَةٌ اي انها من اصول
غير عربية ثم دجنت فاشبهت نفاثرها من الدواب
المروفة في المواطن العربية .

لقد عرضت الحاجة الى نقل الكلم الاعجمي
وصيرورته « معربا » في العصور الاولى من تاريخ
العربية . انك واجد من هذا الدخيل مادة واسعة في
ادبنا الجاهلي القديم ، وانك لتجد شيئا منه بوجه
خاص في شعر امية بن ابي الصلت مثلا .

ومن المعلوم ان التحول الحضاري يدعو الى
هذا . ومن غير شك ان التحول الحضاري واقع في
كل عصر . وهذا يعني ان الجاهليين قبل الاسلام
قد حذبهم هذا اللون من التحول الحضاري ، فليس
مجتمع الجاهلية القديم مجتمعا انصرف بمادته
ولوازمه الى البداوة ، وذلك لان الاصول الحضارية
واضحة كل الوضوح في ادبهم . انك لتجد في
نصوص الادب الجاهلي مواد لغوية استعيرت من
لغات عدة تنصرف الى ادوات وآلات واصراض
واحوال . وهي تنتظم ما ندعوه بالحاجة المادية
والحاجة المعنوية .

ثم جاء الاسلام بشريعة جديدة وفكر جديد
وحضارة جديدة ونمط من حياة اجتماعية غير تلك
في عهود ما قبل الاسلام . ومن ثم لا بد ان يكون لكل
ذلك رصيد لغوي جديد فيه من المفكر الجديد نصيب
واقر . ولا بد والحالة هذه ان يظهر فيض جديد من
العرب مما تقتضيه الحياة الجديدة .

ثم اتصل العرب المسلمون بغيرهم ابان الفتح
فانضمت الرقعة الاسلامية ودخل في المجتمع الجديد
امم شتى فكان لا بد ان تثرى العربية بمادة جديدة
تقتضيها ظروف هذه المجتمعات الواسعة في شتى
اقطار الدولة الاسلامية . ثم كان عصر العلوم
والمعارف التي اضيفت الى التراث الاسلامي فكان
ان حفلت العربية بمادة ضخمة فيها ما يتصل باسباب
الحياة المادية الجديدة وفيها ما يتصل بالحضارة
الفكرية .

قلت ان المواد الاصطلاحية التي دخلت العربية
تنتمي الى لغات مختلفة منها الفارسية والرومية
[اليونانية والرومانية] والهندية والمغولية بالوانها
المختلفة لعل اخرها التركية العثمانية .

واريد ان افرد مكانا خاصا للغات السامية التي
نجدها في العربية . اقول ان طائفة كبيرة من العرب
الذي شاع في العربية من اصول سامية عبرانية
وآرامية وبابلية ولانعدم ان نجد شيئا من الحبشية
القديمة .

ومن المفيد ان اشير الى ان الدين كتبوا وصنفوا
في « العرب » لم يهتدوا الى الاصول التي جاءت
منها تلك المواد المرعبة . انهم خلطوا بين ما هو آرامي

سرياني وبين ما هو عبراني ، فالجواليقي في كتاب
المعرب يقول مثلا في كلمة « صلاة » انها عبرانية وقيل
سريانية ومثل هذا التردد كثير . وهو يدل على انه
لم يعرف معرفة العالم الواثق للاصول التي اخذت
منها العربية .

ومن الغريب ان اللغويين الذين صنفوا في
المعرب وتكلموا عليه لم يعرفوا غير العربية وان كثيرا
منهم كان يجهل اللغات التي كانت معاصرة للعربية
من سامية وغير سامية ولذلك جاءت مدوناتهم
مفتقرة الى الضبط والصحة .

ثم جاء العصر الحديث فشمع العرب ان معين
الحضارة الحديثة يتدفق من الغرب ومن اصقاع
بعيدة عنهم . وان لا قبل لهم باللحاق باهل العصر
الجديد وذلك لان العلم الحديث والمعرفة الحديثة
شيء لم يتبها لهم بسبب انهم لا يعرفون الوسائل الى
ذلك ، وان لفتهم قاصرة عن ان تكون وسيلة لنقل
المعارف الجديدة بسبب انهم لا يعرفونها معرفة
حسنة فالامية فاشية والجهل مستحکم والشعوب
مغلوبة على امرها يصرف شؤونها حاكم دخيل ولو
كان هذا الحاكم عثمانيا مسلما .

ومن هنا نشأ التفكير في « التعريب » والتعريب
في عصرنا الحديث شيء غير الذي عرضنا له . لقد
فكروا في اغناء العربية بالمصطلح الفني للوسائل
والادوات والمعاني الجديدة . ثم فكروا في جعل
العربية لغة العلم فكان لطائفة منهم ما ارادت .

ولقد انصرفت جهود الاوائل العاملين في
« التعريب » في مطلع هذا القرن الى اتباع اسلوبين :
الاول : تهيئة المصطلح العلمي باخذه بجملته
من اللغة الاجنبية واجراء تغيير طفيف عليه ينصرف
الى الاصوات ومعالجتها علاجاً يهيء من المادة
الاجنبية شيئا على غرار الابنية العربية والاصوات
العربية . وهذا هو الذي جرى عليه المتقدمون فكانت
لهم مصطلحات الفلسفة والموسيقى والجغرافيا
والكيمياء والسيماء والفيزيقا والارثمطيقا
والغرامطيقا . ومثله كثير كثير .

والثاني : ان يتجه الى العربية فيختار من
موادها مادة على اية هيئة كانت لتؤدي المعنى الجديد
او قل المصطلح العلمي . واستطيع ان اسمي هذا
الاسلوب : اسلوب الترجمة .

ولكنني سأعرض للتعريب ابان الفتح الاسلامي
وفي خلال القرن الاول للهجرة . ولقد اندفع المسلمون
بسبب العوامل المساعدة على ذلك وهي :

١ - وجود المراكز العلمية التي كانت حافلة
باسحاب الثقافات القديمة ثم اولئك الذين
جاءوا فانصلوا بالمجتمع الاسلامي الجديد .

٢ - ان معظم المعنيين بالثقافات القديمة كانوا من
الساميين اي الناطقين بالسرانية ممن حدقوا
اللغتين العربية والسرانية . ووجود هؤلاء
يشير الى ان الثقافة القديمة مما يحمله هؤلاء
ما زالت معرفة متدايسة في ظلال الحكم العربي
الجديد .

٣ - دخول غير الساميين في المجتمع الاسلامي
الجديد ولا سيما من القرس ، وكان هؤلاء من
غير شك ينقلون شيئا من معارفهم الى العربية
التي تعلموها بل حدقوها .

٤ - سعى اولو الامر الى ان يعرف اهل المجتمع
الجديد الاسلامي من عرب وغيرهم شيئا من
المعارف القديمة مما هم في حاجة اليها .

غير ان تعريب العلوم في هذه الحقبة المتقدمة
لم يكن عملا عظيما قام على خطة مدروسة معدة
اعدادا خاصا وانما كان شيئا تمليه الحاجة تارة
وحب المعرفة تارة اخرى .

ولقد افاد المتقدمون من هذا الاسلوب الثاني
فصنعوا المعجم الزاخر بالفاظ العلم . واستطيع ان
ادخل في هذا الفاظ الحديث او ما سمي بـ«مصطلح
الحديث» والفاظ القرآن مما اشتمل على مجازه
وغيره ومشكله ومفرده ونادره ولفاته ، وكل ذلك
يدخل في اللغة الاصطلاحية .

ومثل هذا يقال في سائر الالفاظ الخاصة
الاسلامية وغيرها من سائر العلوم التي عرفها
المسلمون في حضارتهم الاسلامية طوال العصور
المتعاقبة . غير ان المعنيين بالتعريب في عصرنا قد
ضيقوا مفهومه القديم فقصروه على نقل العلم الحديث
بالعربية . يدخل في هذا المصطلح وغيره .

هذا هو « التعريب » الذي اخذ به العرب في
عصرنا هذا في يومنا هذا .

لا اريد ان اعرض للنواحي التاريخية التي
كانت الاساس في نقل العلوم والمعرفة ولا اريد ان
اشير الى المراكز التي سبقت الاسلام مثل جنديسابور
في الشرق والاسكندرية في الغرب وما كان ليهذين
المركزين من اثر في نشر المعرفة .

ولا اريد ان اعرض لاثر الجماعات السريانية
التصرانية والجماعات اليهودية في بلاد العرب وما كان
لهم من مكان في المعارف القديمة .

خاتمة

هذه صفحات من العربية التاريخية التي سلخت من عمرها قرونا طويلة وتقلبت عليها الاحداث وعاشت حضارات عدة واستطاعت ان تكون لغة العالم المتحضر طوال قرون سلفت . انها لغة العرب في بواديهم وحواضرهم ثم لغتهم في اقاليمهم المختلفة، ثم لغة الدولة الاسلامية بين مشرق ومغرب . وهكذا اتيح لهذه اللغة ان يلهج بها غير ابنائها بل قل عكفوا عليها واحبوها واتخذوها لسانهم بل نسوا لغاتهم التي فطروا عليها فكانت العربية لغة المسلمين عامة . وليس بسبب ان هؤلاء الاعاجم اسلموا فاتخذوا الاسلام ديننا وحضارة وسلوكا فكانت العربية لسانا لهم بل يضاف الى ذلك ان هذه اللغة تملك من وسائل القوة والحياة والجمال ما جعل هذه الانماط الاعجمية تشغف بها وتحبها وتتخذ منها وسيلة عيش وتفاهم وفكر وابداع .

ولم يكتب للغة من اللغات العامرة في التاريخ القديم انها احتفظت بحيويتها خلال قرون طويلة على نحو ما حدث للعربية فلم تندثر ولم تمت وانما ظلت

الا ان حركة التعريب قد شهدت تطورا كبيرا وامتدادا في القرن الثاني الهجري . ولقد شغلت الفلسفة المفكرين واهل الراي فكانت كتب الفلسفة اليونانية من اوائل ما اهتم به النقلة التراجمة بتلوها كتب العلوم الدنيوية كالرياضة والفلك وغيرها .

والذي نلاحظه ان المربين في هذه القرون المتقدمة لم يشعروا انهم يواجهون مشكلات صعبة فقد وجدوا في لغتهم العربية وسيلة نافعة للاعراب عن المعارف الجديدة التي جدت في العصور الاسلامية .

وارى ان يفيد علماء عصرنا من تجارب المتقدمين في تبيئة المصطلح العلمي وان يكون لهم من سعة النظر لتقبل المصطلح الاعجمي ان لم يخالف كثيرا ابنية العربية واصواتها .

حياة متطورة مستجيبة لتبدل الظروف والاحوال .
كانت لغة لانماط مختلفة من المحسوسات كما كانت
لغة عالية للاعراب عن المعاني الجردة وللانصاح عن
دقائق الفكر وخلقاته .

ولم يعرض لها ما عرض لغيرها من اخواتها من
اللغات السامية ، تلك اللغات التي اندثر قدر كبير
منها فامحت آثاره واوشك قدر ضئيل اخر منها ان
يندثر ثم اطلت على مشارف العصر الحديث فكانت
امام محنة اخذت بخناقها ذلك انها تجابه حضارة
جديدة قائمة على العلم الحديث المتجدد المتطور فماذا
عسى ان تكون حال هذه العتيقة المريقة ؟

في طوقنا ان نبعث فيها انماطا من حياة جديدة
وهي جد متقبلة لهذا الجديد فهل ترانا حققنا كثيرا ؟
لعل الجواب اننا ما زلنا نجد في الطريق ،
والصعاب كثيرة وما زال بيننا وبين «سلامة العربية»
مسافة طويلة .

ولو ادركنا وجوه الحل فوجدنا طرائق تعلم
هذه اللغة الكريمة مفيدتين من تقدم العلم الحديث
ووسائله الفنية الجديدة لاستطعنا ان نجد الطريق
ونحقق الرجاء ونشارك في بناء الحضارة الجديدة .

المحتويات

٣	١ - تمهيد
٥	٢ - مقدمة في تاريخ العربية
٩	٣ - العربية التاريخية
٢٢	٤ - من تاريخ لغة القرآن
٤١	٥ - في المعجم العربي القديم
٥٥	٦ - العربية والمصطلح العلمي
٦٩	٧ - التعريب مشكلة
٨١	٨ - حال العربية ومصيرها
٨٧	٩ - خاتمة



رقم الإبداع في المكتبة الوطنية - بغداد
١٧١٤ لسنة ١٩٧٩

١٣٦٦ هـ - ١٩٧٩ م

دار الحرية للطباعة